دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

لا بد من دين الله لدنيا الناس ١٥

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾

أَبَى آدم .. قصة الخليقة
بين الخيال الجامح .. والتأويل المرفوض

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

لابد من دين الله لدنيا الناس ١٥

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾

أبي آدم ﷺ .. قصة الخليقة

بين الخيال الجامح .. والتأويل المرفوض

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الايداع ٤٥٧٤ / ١٩٩٩ م

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977 - 225 - 131 - 0

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

خواطرى حول «أبى آدم»

بقلم محمد محمود هاشم

نحمد الله إلى الله الغنى عن عباده الكبير المتعال، بديع السموات والأرض فعال لما يريد، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. ونقر له بعجزنا وجهلنا وإسرافنا فى أمرنا وقصورنا وتقصيرنا، جل وعز وتعالى عن الشريك والمثيل، والند والزوجة والولد، وعن كل عيب وعجز ونقص. خلق كل شىء وأحسن خلقه ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الأولين الآخرين . أعلم الخلق بالله وأشدهم له خشية ، وفى حديث آخر: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

من أبواب رحمة الله أنه خلق الخلق جميعاً ممن نعلم ولا نعلم، وميز البشر بالفطرة السليمة التى تذكرهم بعبوديتهم لله وبتوحيده، وهيأ لهم فى ذاتهم عقولا وألبابا تهديهم إلى الصراط المستقيم. وعلما منه أزلا بنسيانهم للمواثيق والعهود منَّ عليهم برسل وأنبياء ومعجزات وكتب سماوية على مر العصور، وختم كل ذلك بالبشير النذير المصطفى من الخلق ﷺ بالكتاب المهيمن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليكون مع السنة الصحيحة نوراً دائماً لكل من يريد أن يهتدى .

وإذا كان قصور العقل البشرى فى كثير من مناحى الحياة لا يتيح له إلا رؤية آثار بعض الأشياء الدنيوية لا ذاتها، فبالأولى لا تساعده قدراته المحدودة على الإلمام والإحاطة التامين بآثار رحمة الله وقدرته، وكمالاته ونعمه التى حفظها له لتظهر عند احتياج البشرية لها فى الأوان المحدد لهذا الاحتياج، ناهيك عن الإحاطة بالقدرة والكمالات ذاتها. وأجزم أن هذا القصور البشرى فى الإحاطة

بقدرة الله وكمالاته هو من أبواب رحمة الله لنا، وإلا ذهلت عقولنا لمداها في جميع المجالات مثل الإبداع في الخلق وبسط الرزق والتسخير، فضلا عن باقي أفضال الله ونعمه وإحكامه وتدبيره، وكذلك حتى لا يفوق تكليف الشكر لله مقدورنا المحدود بإمكانياتنا وعيوبنا وعجزنا، ونحمده حمداً كثيراً على أنه: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها من باب كرمه ورحمته.

ولعل نهى سيدنا محمد ﷺ لنا أن نفكر في ذات الله مرتبط بهذا القدر المحدود من قدراتنا العقلية، ومما قد يتعاقب علينا على مر العصور من أفكار بها قدر من الشطط، وتعالم زائف تنكب بنا عن الطريق السوى. وهذا التنبيه الإنذارى من النذير البشير مرتبط بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وإذا كان تصور البعض لـ «كن فيكون» أنه على التراخى، فكمسلم بسيط لا أستطيع أن أتجاهل ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وحرف الكاف هنا لتقريب الأمر إلى قدرات عقولنا العاجزة لأننا حقيقة لا نستطيع أبداً إدراك قدرة الله في كلمة الأمر وسرعتها وكمالها في جميع أوجهها. ومن ثم فلا مجال لافتراضاتنا وتصوراتنا القاصرة عن وجود المراحل والمشاريع الإلهية – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – إنما هذا هو الحال في مجال قدراتنا نحن كبشر.

وبالأحرى كذلك أن ننزه الحق سبحانه وتعالى أن يخلق همجًا بلا سمع أو بصر أو عقل (فؤاد) ومن ثم بلا تكليف لبلايين السنين يترك على الأرض بالروح الحيوانى (ص ١٠٥) وهو الذى قال وقوله الحق: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ كمالاً وجمالاً. فحتى المخلوقات المسخرة للإنسان من جماد ونبات وحيوان لا تشارك مثل هذا الخلق المزعوم في هذه العبثية ﴿وَإِن مِن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى أن لها علماً بالله وإقراراً بوحدانيته وطاعة ما لا نعرفها ولا نعرف طريقة أدائها لها.

وزعم وجود جماعات همج بشرية لبلايين السنين مجردة من كل سمع وبصر وعقل (فؤاد) وهى مجرد مخلوقات متحركة حيوانية السلوك من المفسدين والمتوحشين وغير مزودين بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة وملكات

الإدراك والضمير والإرادة والإستعدادات الفطرية والغريزية للتفرقة بين الخير والشر (ص ١٠٩) يصح بالمثل عن بنى الإنسان وسجلات التاريخ الإنسانى تفيض بأحداث الكفر والشرك والقتل والدمار، والإفساد والوحشية حتى الآن مما يعادل كفة الشر عند البشر المزعومين وبنى الإنسان، بل يزيد إجرام بنى الإنسان بصورة لا يمكن تصور مداها لوجود العهد والفطرة والعقل والأنبياء والرسل والكتب والمعجزات على مدى تاريخهم. فالفصل هنا غير ذى مغزى من الحقيقة البسيطة الواضحة لكل مسلم بسيط وقد تشابهت الأدوار والسلوكيات وضلت الأغلبية العظمى منهم طريق التوحيد ومعرفة الله على مر العصور.

ومن الطبيعى أن هذا الزعم الموهوم يرتب نتيجة وهمية أيضاً، وهى أن آدم جاء لأبوين وأن حواء جاءت كذلك مردداً زعم وثنيى الهند (ص ١١٧) وذلك حتى لا يختلف الدين الحكيم والعلم أيضاً. ولحسن حظ المسلم البسيط ولدحض مثل هذا الزعم وسبقاً لمثل هذه الأوهام الضالة المضلة وتجنيبا للمسلمين لمثل هذا الفكر الذى قد يعتز به المتعالمون الذين يحلو لهم أن يفلسفوا الأمور ويخضعوا الحق البين الذى ما جربنا عليه باطلا، والذى يمثل الفطرة السليمة السوية لمثل هذه الافتراضات، بالرغم من إقرار العلماء المستشهد بهم فى نفس الكتاب (ليكى وجوهانس هورذلر ورويتر) بل ومؤلف الكتاب نفسه إن جملة هذه النظريات المشتجرة والمتعارضة بها أشياء من الخيال تصب فى بحر الضلال (ص ٤٢) فقد كفانا سيدنا رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى والذى يقول عنه الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا .. ﴾ والذى يقول عنه الحق سبحانه وتعالى: ﴿ هَلْ كنت الأَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾ بما ورد فى الحديث الصحيح فى صحيح مسلم رقم (٥٠٧٥) ومسند أحمد (٧٨٢٤) مرفوعا عن أبى هريرة رضى الله عنه « خلق الله عز وجل آدم على صورته » أى هكذا كما هو وبدون سابقه من أصل أو أب أو أم. فتعالت قدرة الله جل وعز .

وإذا كان أهل العلم من أساتذتنا المتمكنين من فقه اللغة العربية وتفسير نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة سيتناولون فى هذا الكتاب الرد

على ما ورد فى كتاب «أبى آدم» من هذه الجوانب وغيرها مما يجود الله به عليهم فلا يسعنى كمسلم بسيط إلا أن أبرأ إلى الله من مثل هذا الفكر الواهم وأنزهه تنزيه العبد المقر بعجزه، واعتذر إلى الله الحى القيوم وإلى سيدنا محمد ﷺ عن مجرد ورود مثل هذه المزاعم واضطرارنا إلى قراءتها .

فالإعجاز البديع لله حقا فى جميع الأحوال والجوانب زمناً ومكاناً وخلقاً وتقديراً ورزقاً وإبداعاً وتصويراً وكمالا وهداية وعزة وإكراماً وفضلاً وموتاً ونشوراً وحساباً ورحمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

هذه الدراسة موقوفة على النظر فى كتاب للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، الكاتب والمفكر المعروف، صدر هذا الكتاب فى العام الماضى (١٩٩٨م) عن دار النشر المسماة بـ « الروافد الثقافية » .

وقد وقف المؤلف الكتاب على فكرة واحدة، قد يكون فى العنوان الذى يحمله الكتاب، وهو : « أبى آدم » وتحته سطران، أحدهما:

« قصة الخليقة » والثانى « بين الأسطورة والحقيقة » قد يكون فى هذا العنوان، وبخاصة فى السطر الأخير « بين الأسطورة والحقيقة، إشارة إلى الفكرة التى يدور حولها الكتاب .

الفكرة

الفكرة التى تبناها الكتاب من أول سطر فيه إلى آخر سطر، هى، باختصار شديد الآن، أن آدم عليه السلام ليس هو أبا البشر، ولا هو أول مخلوق عاقل من غير الملائكة والجن؟!

بل هو أبو الإنسان ، وأن الله تعالى خلق قبله من جنسه خلائق كثيرين عاشوا قبل آدم هذا ملايين السنين ، وكانوا فى تلك الأزمان خاضعين للتصرف الإلهى من التسوية والتعديل والتهذيب، ثم انقرضوا جميعاً بعد أن انتخب الله منهم آدم – هذا – من أب وأم منهم ، كما انتخب حواء زوجة آدم من أب وأم كذلك من آخر أجيال البشر الأولين، الذين انقرضوا تماماً. ولم يصبح فى الوجود منهم أحد، وأن آدم وحواء وحدهما هما اللذان بقيا ليكونا أبوين لنوع جديد من ذلك الجنس الذى انقرض. أى نوع الإنسان المستمر توالده حتى الآن إلى قيام الساعة ؟!

والفروق بين البشر والإنسان عند الدكتور عبد الصبور شاهين نوجزها الآن فى الفروق الآتية:

- البشر أقوام همجيون لا سمع ولا بصر لهم ولا عقل ؟!
- الإنسان هو النوع المنتخب المهذب الراقى، لهم سمع وأبصار وعقول .
- البشر لم يرسل الله فيهم رسولاً ، ولم يكونوا من أهل التكليف الإلهى، فلا إيمان بالله، ولا أوامر ولا نواهٍ كلفهم الله بها . لأنهم كما ردد هذا الدكتور شاهين مرات، كانوا بمثابة مشروع إلهى تحت التنشئة، ينتقلون بصنع الله من طور – إلى طور أخذين فى الصعود نحو الرقى والكمال، وهذا هو ما قاله دعاة « نظرية النشوء والارتقاء » أو الانتخاب الطبيعى من قبل، وأن « البقاء للأصلح » .
- البشر مخلوقون من تراب أو طين .
- أما الإنسان فإنه هو المخلوق من « ماء » أو من « علق » أو من « نطفة » .

هذه هى الفكرة، التى تمثل خطوط العرض والطول فى هذا الكتاب؛ لأنها ملكت كل حواس ومشاعر المؤلف وعاشت فى وجدانه – كما قال هو – خمسة وعشرين عاماً أو تزيد . هذه الفكرة هي التى نواجهها فى هذه الدراسة . ولكن قبل البدء فى المواجهة، لابد من تحرير مدخل لهذه الدراسة، نعرض فيه بعض الأمور المهمة، التى تتصل بفكرة الكتاب، من جهة . وبمنهج المؤلف فى عرضها، ثم الجهة التي اعتمد عليها في إثبات الفكرة التى تحمَّس لها، والنظر فى الطريقة، أو الطرق ، التى سلكها فى انتزاع الأدلة منها، وهل سلمت له أدلته فيكون قد أثبت الفكرة التى تبناها بما لا مجال للطعن فيه، أم لم يسلم له استدلال فى الواقع، وإن كان هو يراه مقنعا يفيد اليقين، أو حتي الظن القوى، الذى يشيع فى النفس نوعاً ما من الإطمئنان .

فالدعوي التي ادعاها المؤلف دعوي « غريبة » حقاً، والدعاوى الغريبة، إذا واجه بها مدَّعُوها الناس تكون فى أمس الحاجة ، إلى أدلة قوية تكافئ المقام الذى يحدثه رد الفعل . وإلا كانت وَهْماً من أوهم الأوهام .

القاهرة – الظاهر، ليلة الاثنين ٧ / ١٠ / ١٤١٩هـ/الموافق ٢٠ يناير ١٩٩٩م .

* * *

المدخــل

في هـذا المدخل نوجز الحديث عن الأمـور الآتيـة ، واضـعين عنـواناً لكل أمر منهـا :

طبيعة الموضوع المتحدث عنه :

إن الموضوع الذى وقف الدكتور عبد الصبور شاهين كتابه المشار إليه على الحديث عنه، هو أحد الموضوعات الغيبية، التى حدثت فى أزمنة سحيقة، وَبَعُدَ بيننا وبينها العهد، بل هو موضوع يقع الآن خارج ذاكرة الوعى التاريخى، وفلت من بين أيدينا فلم تعد لأحد سيطرة عليه، وهو أشد الأمور الغيبية غموضاً، وكل حديث عنه يخوض فيه الباحثون، إنما هو رجم بالغيب [1] ، وضرب من الظنون أو الأوهام التى لا تغنى من الحق شيئاً .

والأمور الغيبية التى لا يكون للبحث فيها جدوى الآن، لانقطاع صلة الناس فيها كثيرة، منها هذه القضية التى فجرها الدكتور شاهين، ومنها البحث عن عمر الأرض، وعن اللغة «الأم» ما هى؟ وعن كيفية نشأة هذه اللغة .

ثم البقعة التى هبط إليها آدم وحواء، وكيف تمت هجرات الناس منها إلى ربوع الأرض؟

ومنها التحديد الزمانى لعهود الرسل والأنبياء، والفترات التى بين كل رسولين . وأصل اللغات السامية، أهى العربية أم العبرية . والموطن الأصلى للساميين، وكيف تمت الهجرات منه؟ الخ . .الخ .

والبحث حول هذه الأمور لم ولن يؤدى فيها إلى طائل، والنماذج التى عرفها الناس منها، إنما هى ركام هائل من الفرضيات والأقوال المتضاربة، وهى نوعان :

---

(١) هذا تعبير قرآنى، ومثل يضرب لكل كلام غير صائب . وأصل الرجم : الرمى للصيد ونحوه، فالصائد الذى يرمى رميا عشوائيا على فريسة لا يراها ولا يعرف مكانها، يقال له أنه رمى بالغيب . ومحال أن يكون رميه مصيباً . وقد أطلق القرآن هذا الوصف على اختلاف الناس حول عدد أصحاب الكهف . . .

الأول : روايات نظرية ، تناقلتها الأجيال ، وقد وضعت حولها مصنفات، أو وردت إشارات في كتب التاريخ والسير، كتاريخ الطبرى، والبداية والنهاية لابن كثير في الدراسات العربية، والإسلامية ثم التوراة في المصادر اليهودية، وكلها لا تبعث الثقة في النفس. والإطلاع عليها يؤدى إلى الاضطراب، والذين تناولوا تفسير القرآن الكريم نراهم إزاءها فريقين:

أحدهما : يذكر في تفسيره بعض تلك الروايات الواهية ويكثر هذا في كتب التفسير بالمأثور، والتفسير بالمأثور هو الذى يحاول أصحابه تفسير الآيات أو الوقائع بأحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ، أو أقوال صحابته رضوان الله عليهم، أو التابعين وتابعى التابعين. ويكثر في بعض هذه التفاسير ذكر الآثار الضعيفة أو المكذوبة، والأحاديث التى وضعها الوضاعون من اليهود وأصحاب الأهواء، ومحال أن يجد المفسرون بالمأثور نصوصاً صحيحة السند والمتن تسعفهم في تفسير كل ما ورد في كتاب الله، فيضطروا إلى ذكر ما ليس صحيحاً، مما عرف عند علماء المسلمين على مختلف عصورهم وتخصصاتهم بـ «الإسرائيليات» في كتب التفسير وكتب الحديث [1] .

ومن الإنصاف أن نقول: إن ما ورد في بعض كتب التفسير بالمأثور، كتفسير ابن جرير الطبرى، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وتفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطى ، إنما ذكروه بحسن نية، ولم يقصدوا الإساءة، أو يتعمدوا الكذب في نقلهم الروايات الواهية، والمكذوبة وأنهم – أحياناً – ينبهون إلى ضعف ما ذكروه من روايات أو عدم صحته .

والفريق الثانى : لا يذكرون شيئاً من هذه الروايات المكذوبة، أو الضعيفة، وهؤلاء هم أصحاب التفسير بالرأى – يعنى الاجتهاد – وليس الرأى الموسوم بالهوى لأنه مذموم، وصاحبه آثم. والتفسير بالرأى له قواعد وأصول متبعة، تضفى على التفسير المعتمد على الرأى، فيما ليس فيه نص مأثور صحيح السند والمتن، هالة من القبول والاحترام. ومنها تفسير الكشاف للزمخشرى، وتفسير أبى السعود العمادى، وغيرهما كثير.

---

(١) قاوم العلماء هذه الظاهرة ووضعوا مصنفات كثيرة حول ظاهرة وضع الأحاديث والأخبار. ونصوا عليها واحداً واحداً.

أما النوع الثانى من النماذج التى عرضت لتلك الأمور الغيبية، الضاربة فى غمار الزمن، فهى ما يعرف بالمباحث العلمية، التى تعتمد على الآثار التاريخية والأحافير من بقايا الهياكل الإنسانية والحيوانية والنقوش الأثرية. فإن هذه النماذج، وإن كانت أجدى من الأولى، لاعتمادها على مواد خاضعة للفحص والدراسة والاستنتاج، فإنها لم تؤد حتى الآن إلى نتائج يمكن الإطمئنان إليها، فظلت مقصورة على دوائر الظن والتخمين، وتضاربت نتائجها فيما بينها، وقد ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين طائفة منها، ثم عقب عليها بقوله: «لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة فى أغلب الأحيان، بل هى رؤىً نسبية ، من حيث أن العقل الذى يتوصل إليها مرتهن بقيود البيئة، والزمان، والقدرات الذاتية، والدلائل المتاحة» [(١)] .

قال الدكتور شاهين هذا الكلام، الذى ينزع الثقة عن النظرة العلمية، التى تعتمد على دراسة الأحافير والآثار القديمة، قال هذا بعد أن هوَّن من قيمة الروايات النظرية حول قصة الخليقة، سواء كانت فى مصادر يهودية، أو إسلامية، أو غيرهما فكلاهما - أعنى النصوص المروية، والدراسات العلمية - لا يمكن الاعتماد عليهما فى الوصول إلى حقائق قطعية الثبوت حول قصة الخليقة. وهذا حق لا ينازعه فيه منصف.

ولهذا، فإنه يصرف نظره عنهما، وهو بصدد تقديم فكرته التى أشرنا إليها من قبل. واتجه وجهة أخرى انتزع منها ما لاح له أنه أدلة تثبت فكرته التى من أجلها وضع هذا الكتاب، وسوف نعرض لها فيما بعد، بعد أن نحدد بكل وضوح ما يدخل معنا فى الاعتبار فى هذه الدراسة . وحسبنا الآن أن نقرر أن المؤلف يعترف باستحالة الوصول إلى نتائج صحيحة حول قصة الخليقة، عن طريق الروايات النظرية من المصادر المتقدمة، أو عن طريق الدراسات العملية، التى أجريت حول الجماجم البشرية، والآثار التاريخية، ونحن وغيرنا، نتفق معه فى هذا الموقف .

---

(١) أبى آدم (٤٢) .

موقف السلف من هذه القضية :

نقصد بـ « السلف » هنا علماء الأمة ومفكريها على اختلاف مذاهبهم من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ومتكلمين، ومؤرخين، وعامة المسلمين. أما القضية فنقصد بها مجموع الأفكار رالاعتقادات حول نشأة الحياة البشرية على الأرض، وما يتعلق بقصة آدم أبى البشر عليه السلام. .

وموقف سلف الأمة بدءاً من الصحابة، وحتى الآن هو ما ورد فى محكم آيات الكتاب العزيز، وما صح سنده ومتنه من أحاديث رسول الله ﷺ .

* وخلاصة موقف السلف : أن هذه القضية أمر غيبى، يجب الإيمان بها كما وردت فى كتاب الله، وما أشارت إليه أحاديث الصادق المصدوق ﷺ . والوقوف فى الإيمان بها عند دلالات النصوص المقدسة دون تحريف، أو تأويل تأباه دلالات اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أو تأباه حقائق الإسلام الواضحة. وأن هذه القضية لا يحتاج المسلم فى الإيمان بها جملة وتفصيلاً إلى مصادر أخرى غير المصادر الإسلامية المقدسّة. وأنهم لا يقولون فيها غير ما قاله الله ورسوله. شأنهم فيها شأنهم فى كل أمر غيبى لا يملك الحديث عنه إلا علام الغيوب.

لهذا، فإننا نختلف كل الاختلاف مع الدكتور عبد الصبور شاهين فى موقفه غير المنصف، حيث ذكر فى إحدى مقدمات كتابه الفقرة الآتية :

« قال المفسرون بألفاظ مختلفة، ومعان متفقة : إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام، أوحى إلى الأرض : إنى خالق منك خلقاً منهم من يطيعنى، ومنهم من يعصنى، فمن أطاعنى منهم أدخلته الجنة، ومن عصانى أدخلته النار، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها، فلما آتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض إنى أعوذ بعزة الله الذى أرسلك لا تأخذ منى شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئاً. قال يارب : استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها؟

فأمر الله ميكائيل عليه السلام، فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فرجع إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئاً؟

فبعث الله ملك الموت، فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فقال ملك الموت: وإنى أعوذ بالله أن أعصى له أمراً، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى، ومن سبختها وطينها، وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها، فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث، والصالح والطالح، والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم ..» (١).

قدَّم المؤلف لهذه الفقرة بقوله:

«جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بـ«العرائس..» ثم عقب عليها بقوله:

«على هذا مضت كل كتب التفسير تقريباً، وكلها تنقل عن مصدر واحد، مع انطواء الرواية، على كثير من صور السذاجة» (٢).

وهذا الصنيع من المؤلف يوحى لجمهور قراء كتابه أن ما ذكره صاحب «عرائس المجالس» هو التصور الإسلامى الوحيد فى قصة آدم، بدليل أن جميع المفسرين أطبقوا على ترديد ما ذكره صاحب «العرائس» وهو ينقل فى كتابه خرافات لا حصر لها، لا يصدقها عقل، ولم يردْ بها نقل مع بُعد ما ذكره عن الاعتقاد الإسلامى الصحيح فى نشأة آدم عليه السلام.

وهذا الذى ذكره إنما هو مجرد رواية، أو روايات غير معتمدة في النظر الصحيح. فلم ينص عليه السلف فى مسائل الاعتقاد، ولم يرد فى مسائل ما أجمعت عليه الأمة، ووجوده فى كتب التاريخ والسير، ليس معناه اعتماده والإيمان به، وهذه الروايات وإن وردت فى بعض المصادر الإسلامية بدون تنبيه عليها، فإنها لا تسلم من الطعن فى مصادر أخرى. وعلماء الكلام، وغيرهم نصوا بكل وضوح على مسائل الاعتقاد الصحيح الذى يجب على المسلم الوقوف عندها. ولهم فى ذلك مؤلفات مطولة وموجزة، مثل منهاج السنة النبوية للإمام ابن تيمية، ومجموعة الفتاوى الكبرى له، ومثل الإبانة للإمام أبى الحسن الأشعرى.

---

(١) أبى آدم (٧).

(٢) نفس المصدر (٩).

فكان حريا بالدكتور شاهين أن يغفل هذا الجانب ولا يذكر ما يسيء إلى سلف الأمة الصالح، ثم يكتفى به ليضع السلف موضع السخرية أمام قراء كتابه ويظهرهم بمظهر المرددين – بلا وعى – لأكاذيب بنى إسرائيل، والنقل عنهم بلا أدنى روية. وهو يعلم الحركات النقدية الواعية، التى قام بها العلماء حول الأكاذيب الإسرائيلية فى التفاسير والسيرة والتاريخ والأحاديث النبوية، ووضع الضوابط التى يعرف بها الصحيح من الأقوال، ويعرف بها كل ما هو مكذوب أو معلول. وقد استمرت هذه الحركات الوثابة من عصر الإمام البخارى، وبلغت ذروتها فى عصر ابن الصلاح صاحب كتاب «علوم الحديث» المتوفى فى القرن السابع الهجرى. وما يزال أهل العلم حتى يومنا هذا يضيفون إضافات حسنة إلى جهود أولئك العلماء الأعلام. ولكن يبدو أن بريق الفكرة ، التى أراد الدكتور شاهين عرضها على الناس، قد أنساه الإشارة إلى بعض الأساسيات «الواقية» التى تحول بين القراء وبين سوء الظن بعلماء الأمة، الذين نحن عالة عليهم الآن .

● **محتويات الكتاب :**

ليس من غرضنا – هنا – الحديث عن محتويات الكتاب من حيث وضعه مؤلفه أبواباً وفصولاً. بل الغرض وصف سريع لمادة الكتاب، مع الإشارة إلى أبرز ما فيه من نقاط لها صلة بالدراسة التى نقوم بها تجاهه.

إذا تمهد هذا فإننا نقول إن محتويات كتاب «أبى آدم» يمكن شطرها شطرين:

الأول : ما قبل حديث القرآن عن آدم وحواء وما يتعلق بقصتهما في القرآن الكريم. وهذا الشطر يبدأ من أول الكتاب إلى (ص ٥٠) .

والثانى : هو حديث القرآن الكريم عن آدم، ويبدأ من (ص ٥١) إلى آخر الكتاب البالغ عدد صفحاته ستا وثمانين ومائة صفحة. أى أن الشطر الأول نسبته إلى الشطر الثانى تقارب نسبة ١ : ٢

عرض المؤلف فى الشطر الأول – بعد المقدمة – لثلاث نقاط ، هى :

* القصة بين العقل والنقل .

* النظرة العلمية .

* نظرة القدماء إلى وجود الخليقة .

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى خطورة الفكرة التى وضع من أجلها الكتاب، وهى الفصل التام بين البشر والإنسان وأشار فيها إلى أن باحثاً معاصراً من تونس كتب بحثاً ذهب فيه إلى أن البشر غير الإنسان. وأن المؤلف - أعنى الدكتور عبد الصبور شاهين - يتفق معه فى أصل الفكرة ويختلف معه فى التفاصيل [١] .

أما النقاط الثلاث الأُوَل، فقد كان الغرض منها لدى المؤلف أن قصة الخليقة يغلب عليها الغموض والاضطراب بين العقل والعلم والروايات الدينية بوجه عام، وأن إزالة هذا الغموض، وذاك الاضطراب، لا يمكن حصوله من جهة العلم العملى التجريبى، ولا من جهة الروايات الدينية التى ساق جانبا منها، وإنما السبيل الوحيد هو ما ورد فى القرآن الكريم، لكن لا على فهم القدماء للآيات القرآنية التى تحدثت عن « قصة آدم » بل على نظر جديد مغاير تماماً لما ذكره المفسرون، وما قام عليه إجماع علماء الأمة، وفى ذلك يقول:

« أما القرآن، وهى الكلمة النهائية فى الخطاب ما بين السماء والأرض، أو ما بين الأعلى والأدنى، فإنه - ولا شك - يقدم للعقل الإنسانى الحقائق النهائية فى الموضوع. ولكن الأجيال تتفاوت فى فهم النص المقدس؛ حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الدينى، حتى الآن من النصوص، مناقضاً للعلم، ولا سبيل إلى اللقاء بينهما » [٢] .

ظاهر جداً أن الدكتور عبد الصبور شاهين ينكر فى هذه الفقرة التى نقلناها عنه، ينكر ما أجمعت عليه الأمة فى فهم الآيات التى تحدثت عن خلق آدم وزوجه وذريته، والسبب عنده أن هذا الفهم يبدو مناقضا للعلم، ويعنى بالعلم تلك النظريات المتضاربة، الناتجة عن دراسة بعض الجماجم والآثار. ونذكر القارئ الكريم أننا نقلنا من قبل من كلام الدكتور شاهين ما أفاد رفضه هو نفسه لنتائج

---

(١) أبى آدم (١٣ - ١٦) واسم الباحث هو : الأستاذ بشير التركى .

(٢) أبى آدم (٤٢) .

التجارب العلمية . وحتى إذا فرضنا أن اختلافا ما حدث بين معان وردت فى القرآن، وبين نتائج علمية من هذا النوع الذى تحدث عنه فى كتابه، فإن الخطأ يكون فى نتائج التجارب العلمية لا فى معانى القرآن إذ لم يثبت – ولن يثبت – حدوث تناقض بين الحقائق العلمية اليقينية، وبين المعانى القطعية الواردة فى كتاب الله العزيز. والدكتور شاهين نفسه يدرك هذه الحقيقة تماماً .

وبعد أن هوَّن من شأن ما أجمعت عليه الأمة فى شأن خلَق آدم وذريته، نراه يقترح البديل الذى يزيل ما بين العلم والعقل وبين القرآن من تعارض، أو تناقض فيقول بعد أن تساءل هل يمكن التوافق بين ما يفهم من القرآن وبين العلم والعقل: وهذه عبارته بالحرف «وهل من سبيل إلى لقاء بينهما» ؟

«نحن نرى أن ذلك ممكن، من خلال فَهْم واعٍ للنصوص القرآنية . فَهْمٌ يخرج عن المذهب التقليدى، الذى التزمت به التفاسير كلها؟ ويسعى إلى استنطاق النظم القرآنى، مادام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن» ؟ (١) .

معنى هذا الكلام أن تناقضا عظيما حدث بين العلم والقرآن فى مسألة بدء الخليقة، وأن آدم عليه السلام هو أبو البشر والإنسان والناس والإنس، وأن هذا التناقض لن يُزال إلا بالنظر الجديد فى دراسة الآيات القرآنية، الذى سيقوم به الدكتور عبد الصبور شاهين بعد قليل، بعد رفضه القاطع لما أجمعت عليه الأمة – سلفا وخلفا – من فهمهما للآيات التى تتحدث عن خلق آدم وما ترتب عليه من وقائع؟

ولا يُفْهمُ من كلامه هذا أنه يريد تلك الروايات الواهية، من خارج القرآن والحديث الصحيح ؛ نحن نرفض أن يكون مراد المؤلف تلك الروايات. ولرفضنا هذا سببان قويان :

الأول : أن تلك الروايات الواهية التى وردت فى كتب التراث ليست هى عقيدة الأمة، ولا فهمها المجمع عليه في وقائع الخلق الأول. بل إن عقيدة الأمة أرفع قدراً وأصدق تصوراً، وأصح سنداً مما حفلت به الروايات النظرية التى لا

---

(١) أبى آدم (٤٢) .

تثبت أمام النظر الغامض السليم، ومن يدعى قصر عقيدة الأمة على تلك الروايات الواهية فقد أعظم على الله الفرية . وسلوك الدكتور شاهين نفسه – كما سيأتى – هو الدليل أو السبب الثانى الذى حملنا على القول – بكل اطمئنان – على أنه لم يرد هذاالذى نفينا آنفا أن يكون هو مراده من عبارته الثانية التى نحن بصدد التعليق عليها هنا .

الثانى : أن الدكتور شاهين – فيما سيأتى – عمد إلي الآيات التى تحدثت عن خلق آدم، ورفض تفسير علماء الأمة لها، وقام بوضع تفسير آخر من عنده مخالف كل المخالفة للتفسير المجمع عليه عند سلف الأمة وخلفها سعيا وراء إثبات الفكرة التى من أجلها وضع كتابه «أبى آدم» .

وهذا يؤكد – بكل قوة ووضوح – أنه لم يقصد رفض الروايات الواهية، فهى مرفوضة قطعا – وإنما أراد رفض التفسير الصحيح، الذى أجمعت عليه الأمة جمعاء ثم بنت عقيدتها فى خلق الله آدم عليه، وهو نفسه يعلن ذلك مرات، ويسم منهج سلف الأمة وخلفها بالمذهب التقليدى، الذى ترتب عليه حدوث صدام عنيف بين العلم والقرآن؟!

ومسألة بدء الخلق مسألة غيبية محضة . والأمور الغيبية لا صلة للعلم التجريبى بها لا من قريب ولا من بعيد، والمعول عليه فيها هو الوحى الأمين، أو الخبر الصادق عن لسان رسول الله ﷺ . فإذا ورد على لسان الشرع معنى قطعى، وجب على العقل التسليم به سواء فهم وأدرك كنهه، أو لم يفهم ولم يدرك . أما العلم فإن جاءت نتائج بحثه مطابقة، لخبر الشرع فتلك هى محمدة تحسب للعلم وأهله، وإن اختلفت فعلى العلماء أن يتهموا أنفسهم بالعجز أو الخطأ فى الاستدلال . ويبقى الحق مع ما قرره الوحى أو الرسول ﷺ . إذن ، فما كان ينبغى – أصلاً – وضع العلم التجريبى فى درجة مكافئة للوحى، تمهد لنشوء خصومة بينهما، ثم تحمل هذه الخصومة بعضنا للأعتداء على النصوص المقدسة فننزلها من هاماتها العُلى، لنعقد مصالحة بينها وبين دلالات العظام البالية، والجماجم المحطمة ونحن كما قال ربنا : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ والله وحده هو «علام الغيوب» .

أما الشطر الثانى من الكتاب، فقد وقفه المؤلف على حديث القرآن عن الإنسان .

والغرض منه إثبات التفرقة بين مفهوم «بشر» ومفهوم «إنسان» وأن «بشر» الواردة فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾ ليس هو آدم قط بل هو أب لبشر كثيرين.

وأن «بشر» هذا ليس هو الذى أمر الله الملائكة بالسجود له، وليس هو المخلوق الذى خلقه الله لعبادته، وأرسل إليه رسله، لأن «بشر» هذا ومن تناسل منه كانوا مثل الدمى لا عقل ولا سمع ولا أبصار لهم. بل هم «مشروع بدائى جداً موضوع تحت التعديل والتسوية والترقى شيئاً فشيئاً ، خاضع للتنشئة عبر ملايين السنين؟ وبعد ما لا يعلمه الله من تطاول الأزمان حدثت تصفية جذرية فانقرض بنو البشر جميعا، ولم يصطف الله منهم إلا اثنين هما: آدم وحواء، اصطفاهما بعد تلك التجارب الطويلة من أبوين وأمّين؟

فآدم هذا غير «بشر» الذى قال الله فيه : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾ .

وهكذا تطور الوجود من بشر مخلوق من تراب ثم انقرض تماماً إلى «إنسان» مخلوق من ماء، هو الذى أسجد الله له الملائكة، وكلفه بعبادته، وأرسل إليه رسله، ثم راح الدكتور عبد الصبور شاهين يستدل على هذا الزعم الغريب بالآيات القرآنية بعد حملها على غير معناها كما سنرى فيما يأتى :

● **علام حاول إثبات هذه «الفرضية» ؟**

استولت هذه الفرضية على وجدان الدكتور، واشتد عزمه عليها، وقال إنه استمد أدلته عليها من «استنطاق آيات القرآن الكريم» فياترى ماذا فهم من الآيات بعد رفض معانيها الظاهرة القطعية؟ نحن نقدم بعض نماذج من فهمه للآيات ريثما نعود إليها بالتفصيل، ولن نترك شاردة ولا واردة من شبهاته التى استند إليها فى مباحثه كلها إلا بعد دحضها وتبرئة الآيات منها.

وإليك النماذج فى إيجاز :

● أن البشر فى القرآن فى آيات النص على خلق آدم لم يأت إلا نكرة هكذا «بشرا» .

● إن مادة خلق البشر محصورة فى الآيات المشار إليها فى : التراب والطين، والصلصال والحمأ المسنون.

● إن مادة «بشر» جامدة غير متصرفة .

● إن القرآن يخلو من النص على أن الله كلف البشر بأوامر أو نواهٍ، أو أرسل إليهم رسلاً.

● إن كلمة «إنسان» قد نص القرآن على أنه مخلوق من ماء، أو من علق، أو من نطفة، وهذا يدل على أن آدم ليس هو «بشر» بل هو إنسان .

● إن القرآن مشحون بالأوامر والنواهى والتكاليف التى خص بها الإنسان دون البشر.

● أن كلمة إنسان كثيرة التصرف، وليست جامدة عقيمة ككلمة «بشر» فالإنسان إذن مستمر فى الوجود، والبشر انقرض ولم يعد له وجود. وآدم هو أبو الإنسان، وليس «أبو البشر»؟!

● **المنهج الذى سلكه فى كتابه :**

لكل باحث منهج يختاره فى سبيل الوصول إلى غايته من بحثه. ويصطبغ هذا المنهج بصبغة المادة موضوع الدراسة ومنزع الاستدلال.

ومنهج الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين فى محاولته إثبات الفكرة التى تبناها لا يخرج عما أثبتناه فى عنوان هذه الدراسة أو المواجهة، وهما دعامتان رئيستان :

الأولى : الخيال الجامح أو المفرط فى التصور ، لأن التفرقة بين البشر الذى انقرض عنده، والإنسان الذى يعمر الأرض – الآن – ويتناسل ويتوالد إلى يوم القيامة ، أن تصور هذه التفرقة من صنع الخيال الجامح، أو الوهم الموغل فى الإيهام، ومحال أن يكون لهذا المتصور مثقال ذرة من واقع، أو خيال مقبول.

إن عمل هذا الخيال هو المسيطر على هذه الفكرة من الألف إلى الياء، أو من ما قبل الألف إلى ما بعد الياء.

أما الدعامة الثانية : فهى التأويل المرفوض المرفوض، حيث لم يَدَعْ المؤلف

نصا واحداً، يقف حجر عثرة فى طريق فكرته إلا سارع إلى تأويله بما يتفق مع مراده. ولولا ذلك الخيال الجامح ، وهذا التأويل المرفوض لوئَدت فكرته فى صلب أبيها قبل أن تستقر فى رحم أمها، ولكنه بهاتين الدعامتين طارت الفكرة بلا جناحين، ولكنه طيران وقف بها عند نقطة البدء، فلا صعود ولا إقدام، وذلك شأن كل ما ليس له وجود إلا فى الوهم .

والمنهج الذى سلكه الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين يذكرنا بمذهب المعتزلة فى الانتصار لمعتقداتهم وآرائهم فى مسائل النظام السياسى ومسائل الاعتقاد .

فهم – مثله – ما كانوا يأخذون الأحكام من واقع النصوص المقدسة، بل كانوا يقررون ما يرون من آراء ومذاهب، ثم ينزلون النصوص المقدسة عليها، فما وافق معتقداتهم اعتمدوه، وما خالفها فلهم فيه مسلكان :

الأول : أن يصرفوه عن ظاهر معناه ويؤولوه بما يتفق وآراءهم ، غير عابئين بدلالات اللغة وطرائق البيان فى المفردات والتراكيب ، وقد سجَّل عليهم خصومهم شناعات منكرة نتجت عن تأويلاتهم التعسفية للنصوص مما لا يقره نقل، ولا يقبله عقل.

أما الثانى : فقد كانوا يطعنون فى صحة النص إذا استعصى عليهم تأويله، وهذا خاص بما كان غير قرآن ؛ لأن القرآن قطعى الثبوت .

هذا ما أردنا بيانه فى هذا المدخل، ونكتفى به. أما ما يتعلق بالشطر الثانى من الكتاب فهو ما عنون له المؤلف بـ« حديث القرآن عن الإنسان » وهو غرضنا الأهم من تحرير هذه الصفحات. فلنول وجوهنا شطره، وبالله ومن الله التوفيق.

* * *

حديث القرآن

تحت هذا العنوان ذكر المؤلف أو أشار إلى خمس وثلاثين سورة، ورد في بعض آياتها حديث عن «الخلق» أو عن «الجعل» واقعين على إما على النوع البشرى، وهو الأكثر وإما على غيره كالجن والدواب.

وقد مهَّد المؤلف لهذا الحشد من الآيات بالفقرة الآتية «جدير بنا أن نذكر السور القرآنية، التى تعرضت لقضية الخلق، وما يتصل بها، مرتبة حسب النزول؛ لنتابع من خلال هذا الترتيب تدافع معنى الوحى القرآنى، ومنهجه فى سوق الأحداث والحقائق، كما أراد الله للإنسان أن يتعلمها..» [1].

ونعتذر للقراء الكرام عن ذكر نصوص الآيات خشية الإطالة، ونكتفى بالنص على اسم السور وأرقام الآيات، وهى:

سور: «العلق» الآية رقم [٢]: المدثر، الآيات [٢٥ - ٢٩ - ٣١ - ٣]: الأعلى آية [٢]: التين آية [٤]: القيامة [٣٨]: المرسلات [٢٠]: ق [١٦]: الطارق [٦]: ص [٧٦]: الأعراف [١١]: يس [٧٧]: الفرقان [٥٤]: فاطر [١١]: مريم [٦٧]: طه [٥٥]: الإسراء [٦١]: الحجر [٢٨]: الأنعام [٢]: الصافات [١١]: غافر [٦٧]: الكهف [٣٨]: النحل [٤]: نوح [١٤]: الأنبياء [٣٠]: المؤمنون [١٢ - ١٤]: المؤمنون [٧ - ٨ - ٩]: الانفطار [٧ - ٨]: الروم [٢٠]: البقرة [من ٣٠ إلى ٣٦]: النساء [١]: الرحمن [١، ١٤]: الإنسان [١]: النور [٤٥]: الحج [٥]: الحجرات [١٣] [2].

بعد هذه الإشارات إلى هذا الحشد الهائل من الآيات وذكر بعضها، عقب عليها المؤلف تعقيباً قصيراً لم يزد على أربع صفحات ونصف الصفحة، ولما كان المراعى فى الإشارة إلى هذه الآيات هو ترتيب النزول لا ترتيب المصحف، فقد بدأ

(١) أبى آدم (٥١).

(٢) ذكرنا هذا البيان تيسيراً على القراء إذا أرادوا الرجوع إلى نصوص الآيات.

المؤلف تعقيبه عليها بملاحظة أن الله أول ما نص على خلق الإنسان بيّن أن خلقه إياه كان «من علق» باعتبار أن سورة «العلق» وتسمى سورة «اقرأ» كذلك هى أول ما نزل من القرآن.

وفى بيان المراد من هذه العبارة قال المؤلف: إن الله أراد أن يعرِّف محمداً ﷺ بذاته، وأن صفة الخلق هى أنسب نسبة للتعريف بذات الله. ثم يقول:

وفى الحديث القدسى: «كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبى عرفونى» [1].

وهذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها المؤلف هذه العبار ويصفها بأنها حديث قدسى صادر عن الله عز وجل، وكانت المرة الثانية فى المقدمة (ص ٥) حيث قال:

«ولعل هذا هو المعنىٌ بما جاء فى الحديث القدسى الذى حفظناه فى صغرنا، والذى يقول الله عز وجل فيه عن نفسه: «كنت كنزاً مخفيًّا ....» ؟

وهذا الذى ذكره ليس بحديث قدسى، بل هو كلام موضوع لا أصل له [2].

ويمكن القول أن المؤلف لم يعثر على دليل واحدفى الآيات التى أشار إليها، وذكر بعضا منها، لن يجد فيها دليلاً واحداً يؤيد صحة مدعاه، وهو أن البشر غير الإنسان، بل تعثرت خطاه تماماً.

وهذا يفسر لنا لماذا اكتفى بالإشارة إلى الآيات ولم يذكرها كما هى واردة فى المصحف. كما يفسر لنا لماذا أوجز فى التعقيب عليها، وكان الأجدر به أن يؤثر عدم الإشارة إليها أصلاً .. وهذه ملاحظة مهمة نسجلها عليه هنا.

* * *

---

(١) أبى آدم (٥٥).

(٢) انظر المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة (٢٢٧) للإمام السخاوى.

خَلْقُ البشر من طين [1]

ابتداء من هذا المبحث يحاول المؤلف أن يستخرج من آيات القرآن أدلة على صحة مدعاه. ونذكر القارئ بأن من مدعيات المؤلف الأساسية فى كتابه «أبى آدم» أن البشر خلقهم الله قبل خلق الإنسان، وأن البشر همج لا سمع لهم ولا بصر ولا عقل.

أما الإنسان فإن الله أوجده عن طريق «الانتخاب» أو «البقاء للأصلح» بعد أن محا وجود البشر من على ظهر الأرض وأن البشر مخلوق حيوانى بحت من تراب. أما الإنسان فهو نوع مهذب من الخلق. أبوهم آدم المولود من أب وأم من آخر سلالة البشر قبل انقراضهم. فآدم أبو الإنسان ليس مخلوقاً من تراب، بل المخلوق من التراب هو أبو البشر الذين انقرضوا.

هذه الفكرة بدأ المؤلف يحتال على العثور على أدلة لها من كتاب الله بدءاً من هذا المبحث.

وقد ظهرت هذه المحاولة من الفقرة الأولى التى صدَّر بها هذا المبحث حيث قال:

«ونص إعلام الله للملائكة يأتى هكذا: ﴿إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ : ص [٧١] ، واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث: أى الإيجاد من عدم.

والسؤال هو : هل هذه الصيغة فى موقعها تفيد المضى أو المستقبل؟ ونرى أنها تفيد المضى؟

أى أن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به؟ وقد أراد أن يخبر الملائكة، تهيئة لهم حتى يتابعوا أحوال المخلوق خلال مراحل التسوية، والنفخ الإلهى، كيما يقعوا له ساجدين كما أمر الله.

ولعل ذلك الخلق داخل فى الأمر الأزلى الخالق (كن) وهو أمر لم تعرف الملائكة كل تفاصيله، إلا أن يأذن لها الله بذلك». ؟ [2] .

---

(١) قبل هذا المبحث مبحث بعنوان : «إعلام الملائكة» وقد تجاوزناه لأنه يخلو مما يدخل معنا فى المواجهة لأفكار المؤلف : «انظر (ص ٦١) من : (أبى آدم) .

(٢) أبى آدم (٦٤) .

تعقيب :

عند أول خطوة خطاها الدكتور شاهين في استنطاق الآيات ليستخرج منها أدلة على فكرته، برزت له هذه الآية عقبة كؤوداً فى الطريق فهى بمثابة « مطب » ضخم لا يستطاع اجتيازه، وكان حريا بالمؤلف (الداعية) أن يأخذ من هذه العقبة درساً فينفض يده من هذه الفكرة ، ولكنه لم يفعل وقرر أن يزيلها قهراً من طريقه .

والعقبة تتمثل فى كلمة اسم الفاعل (خالق) وهى واقعة خبراً لاسم « إن » وهو الياء الذى ورد كناية عن اسم الجلالة (الله) .

ولاسم الفاعل دلالتان فى اللغة العربية ، التى نزل بها القرآن، وهما :

(أ) إذا كان اسم الفاعل عاملا عمل فعله كان معناه الدلالة على الحال أو الاستقبال . وفى هذه الحالة ينصب اسم الفاعل المفعول الواقع بعده، وهو هنا : (بشراً) .

(ب) إذا لم يعمل اسم الفاعل عمل فعله كان معناه المضى لا الحال ولا الاستقبال . وفى هذه الحال يأتى المفعول بعده مجروراً باضافة اسم الفاعل إليه، ويخلو اسم الفاعل من التنوين .

والآية التى استشهد بها المؤلف لا تدل على المضى، بل على الحال أو الاستقبال، أو هما معاً . والدليل على هذا ما تقدم من أن اسم الفاعل عمل عملَ فعله المضارع . فمعناه فى الآية « يخلق » ودلالة المضارع فى اللغة، إما الحال والاستقبال معاً، وإما الاستقبال إذا دل على ذلك قرينة .

وفى تقرير هذه القاعدة المطردة قال ابن مالك فى ألفيته :

كفعله اسم فاعل فى العمل إن كان عن مضيه بمعزل

يعنى أن اسم الفاعل يعمل عمل فعله المضارع إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، فإذا كان بمعنى الفعل الماضى فلا يعمل، بل يضاف إلى مفعوله ويجر مفعوله على الإضافة .

هذا موضع إجماع عند النحاة واللغويين ، ولهذا خطأوا الكسائى حين قال فى قوله تعالى :

﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ إن « باسط » وهو اسم فاعل هنا بمعنى الماضى وقد عمل عمل فعله فنصب المفعول بعده، وهو : (ذراعيه) لقد خطأه أهل العلم وقالوا إنه بمعنى المضارع ، بدليل عطفه على المضارع قبله ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [1] .

ولذلك يفرق العلماء فى الدلالة بين هذين التعبيرين، وهما - مثلا - : هذا قاتلٌ أباه . وهذا قاتلُ أبيه، فالأول يدل على أن المشار إليه « هذا » سيقتل أباه إما فى الحال، وإما فى الاستقبال .

وأما الثانى فيدل على أن المشار إليه قتل أباه فعْلاً والسبب فى اختلاف هاتين الدلالتين : أن اسم الفاعل فى الأول بمعنى الفعل المضارع، وفى الثانى بمعنى الفعل الماضى والآية التى استشهد بها المؤلف من قبيل المثال الأول ومعناها أن الله عز وجل أخبر الملائكة حين قال لهم : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً ﴾ أنه سيخلق بشراً بعد زمن التكلم الذى أفاد هذا الإخبار .

هذه هى عقيدة الأمة من عصر الرسالة إلى يوم الناس هذا وإنما احتال المؤلف فجعل اسم الفاعل « خالق » فى الآية بمعنى الفعل الماضى ليسلم له القول بأن البشر كان الله قد خلقهم قبل أن يقول للملائكة ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً ﴾ ؟!

ولذلك قال :

« ونرى أنها تفيد المضى » وهذا التعبير يكشف عما فى نفس المؤلف من الشعور بالضعف، وهو يقول ما قال .

والواقع أن ما قرره المؤلف هنا فى بيان معنى « خالق » مخالف مخالفة صارخة لما عليه الأمة لغة وعقيدة .

لغة لأن اسم الفاعل إذا نصب مفعولاً كان بمعنى الفعل المضارع لا بمعنى الفعل الماضى .

وأما عقيدة فلم يعتقد أى أحد من الأمة خاصتهم وعامتهم أن هناك فرقا بين البشر الذى خلقه الله من تراب، وبين آدم الذى أسجد الله له ملائكته .

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ١٠٦) وحاشية الصبان على الأشمونى (٢/ ٢٩٢) .

إن فيما قاله المؤلف خرقًا لإجماع المسلمين، لن يملك مدعيه أى دليل على مجرد تصوره فضلاً عن اعتقاده.

ثم تراه بعد ذلك يستشعر سؤالا أو اعتراضاً على ما يقول، حاصله:

إذا كان البشر مخلوقين قبل خلق آدم (الإنسان) بملايين السنين كما قال المؤلف، فكيف لا يكون عند الملائكة علم بهم طوال هذه المدة ؟

استشعر المؤلف هذا الاعتراض ثم حاول الاجابة عليه بقوله: «ولعل هذا الخلق داخل فى الأمر الأزلى (الخالق) : (كن) وهو أمر لم تعرف الملائكة كل تفاصيله، إلا أن يأذن الله لهم» (١) .

معنى هذا أن الله لما خلق البشر قبل خلق آدم خبأهم عن ملائكته طوال ملايين السنين، وبعد هذا أخبر الملائكة بهم، ولم يبين لنا المؤلف ما هى الحكمة الإلهية فى إخفاء أولئك البشر طوال أكثر من تسعة ملايين سنة؟

إن الخيال الجامح ؛ وراء هذا التصور الذى أعلنه الدكتور شاهين مرات فى كتابه .

كما كان التأويل الفاضح ، وراء تحريف معنى اسم الفاعل فى الآية من المضارعية إلى الماضوية .

إن الحكم على أمور الغيب المكنون مجازفة مردودة مهما كان المتلبس بها.

وإن تحريف معانى المفردات والتراكيب المحكمة الواضحة مغالطة مفضوحة، إذا ادعاه أحد رفضته البلايين.

* * *

---

(١) أبى آدم (٦٤) .

الخلق النفسي (١)

كتب المؤلف تحت هذا العنوان مبحثاً قصيراً، لم يتجاوز صفحتين [٧٦، ٧٧] وكان يمكن أن نتجاوز هذا المبحث لخلوه مما نحن نتعقبه من أدلة المؤلف الباطلة. ولكنا رأيناه يمارس فيه نوعاً من التأويل المرفوض ، فآثرنا الإشارة إليه والكشف عن عوره.

وعمدة ما ذكره هنا آيتان، إحداهما من سورة الأعراف [١٨٩] وهي قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليْهَا. . . ﴾.

والثانية هي الآية الأولى من سورة النساء ، وهي قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِسَاءً . . ﴾ .

وعقب المؤلف على الآيتين فقال :

« والآيتان تقرران وحدة الأصل الإنساني، إذ المخاطب هاهنا هو الناس، كما هو نص الآية الثانية، ومفهوم الأولى؛ لأن الخطاب في القرآن لم يوجه مطلقاً إلى البشر» ؟

المؤلف عدو لدود للبشر، صديق حميم للإنسان، لذلك حكم على البشر بالإعدام الشامل، فأعمر بهم بطن الأرض، وأخلى منهم ظهرها، وقد استمرأ أن يظلمهم حتى بعد أن أسكنهم بطن الأرض، وحرمهم من كل الأجيال، فالناس والإنس هم من فصيلة الإنسان لا من فصيلة البشر الملعونين. ولذلك جعل قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ . . ﴾ خطابا موجها للإنسان لا إلى البشر؟

وكذلك قوله في سورة الأعراف: ﴿ خلقكم ﴾ هو خطاب للإنسان وهذا تَحكُّم بغيض من المؤلف، حمله عليه التعصب لرأيه بعد أن أقام فواصل وهمية بين البشر من جهة والإنسان والإنس والناس من جهة أخرى.

---

(١) تجاوزنا مبحثين قبل هذا المبحث وهما : استعمالات القرآن لكلمة بشر (ص ٦٨) والآخر : حقيقة الطين (٧١) لأن ما ورد فيهما كلام عام ليس له صلة مباشرة باستدلال المؤلف على فكرته. ونحن في هذه المواجهة نتبع ما يراه هو دليلا على صدق دعواه، فلزم هذا التنبيه.

وهذه البدعة لم يقل بها أحد من أهل العلم، ولا وردت بها الآثار اللغوية.
بل اللغة تقرر أن هذه الكلمات: البشر، الإنسان، الناس، الإنس، تطلق على بنى آدم عليه السلام، وهى وإن كان لكل منها اعتبار خاص فى التسمية بها، فلا يراد لغة ولا عرفا ولا شرعا منها إلا الدلالة على بنى آدم.

والدكتور شاهين يعلم ذلك جيداً، ولكن تعصبه لرأيه المعروض فى كتابه «أبى آدم» أنساه كل الضوابط اللغوية، وغير اللغوية.

وبقى فى هذا المبحث تحكّم آخر، مهد له بقوله:

«غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل. فهل حواء من ضلع آدم، كما ورد بذلك آثار؟ أو أن حواء خلقت خلقاً مستقلاً (يعنى من أب وأم) كما هو شأن آدم؟».

ثم يختار المؤلف الرأى الثانى كما أشرنا فى المدخل، ونراه هنا يشير إلى حديث صحيح رواه الشيخان البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً إلى النبى ﷺ، يقرر أن حواء خلقت من ضلع آدم بلا أب ولا أم، وهذا الحديث يتفق مع ظاهر المعنى فى آيتى النساء والأعراف:

﴿وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا﴾ فى النساء ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا﴾ فى الأعراف.

لكن المؤلف يضرب بدلالة الآيتين والحديث عُرْض الحائط، ويتشبث بتأويلين لا وزن لهما، ولم تدع إليهما ضرورة شرعية أو عقلية أو لغوية؟

الأول: تأويل النفس فى الآيتين بالنوع أو الجنس، أى خلق الله حواء من فصيلة آدم وجنسه، لا من جنس آخر.

والثانى: حمل الخلق من ضلع آدم على التمثيل والتشبيه والمعنى المراد منه الرمز إلى اعوعاج فى طبع المرأة؟

وإنما قلنا إن هذين التأويلين لا وزن لهما لسببين:

الأول: أن إبقاء المعنى على ظاهر المراد من الآيتين والحديث سائغ لا حرج فيه. والتأويل يُحْتاج إليه حين يمنع من ظاهر الكلام مانع شرعى أو عقلى، ولا مانع هنا قط.

الثانى: أن إجراء المعنى فى الآيتين على الظاهر يتضمن أن حواء مخلوقة من جنس آدم وفصيلته وفى هذا تمام النعمة المراد وهو الامتنان بالخلق والجعل.

أما الثانى فلا يتضمن الخلق من ذات آدم، وما يتضمن أمرين تتم بهما النعمة أولى مما يتضمن معنى واحداً لكن المؤلف يرفض خلق حواء من نفس آدم، ويرى أن فى هذا مشكلة ؟!

ولم يوضح لنا ما هى تلك المشكلة ؟ ربما كان المراد عنده أنها مشكلة، عقلية. وهنا نقول: كان الأولى أن تكون المشكلة في خلق آدم من تراب، لاختلاف الطبائع، والعقل الذى سلَّم بخلق آدم من تراب حرى به أن يسارع إلى التسليم بخلق الله حواء من نفس آدم، ﴿ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾.

ويطلع المؤلف على كلام للشيخ رشيد رضا ذكره تأكيداً لتأويل الحديث المشار إليه بأن المراد منه أعوجاج فى طبع المرأة، ووجوب معاملتها بالرفق، ثم يؤسس عليه اختياره لتأويل الحديث، وكان الشيخ رشيد رضا قد قال: « وحديث أبى هريرة فى الصحيحين: فإن المرأة خلقت من ضلع » على حد ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِن عَجَلٍ ﴾ (١).

فأعجب المؤلف بقياس الشيخ رضا الضلع على « العَجَل » وقد فات المؤلف كما فات رشيداً أن هذا القياس باطل لاختلاف حقيقة الضلع عن حقيقة « العجل » فالضلع عضو حسِّى مادى، والعَجَل أمر معنوى، وله نظائر فى القرآن منها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَان فِي كَبَدٍ ﴾ أى معاناة ومشقة، فقياس الضلع على العجل لا يصح.

والتشبيه التمثيلى فى الحديث الشريف له سنة بيانية مطردة وهى أن يؤتى به صريحاً بأدوات التشبيه، مثل قوله ﷺ :

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى .. » و « مثل الجليس الصالح وجليس السوء.. » و « مثل ما بعثنى الله به من الهدى .. » و « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها .. » و « مثل المؤمن كالخامة .. » و « مثل من يقرأ القرآن ويعمل به » وغير ذلك كثير، ولو كان الرسول أراد بهذا الحديث التشبيه والتمثيل الرمزى لصاغه على غرار الأحاديث التى ذكرنا صدورها باختصار . وبناء على هذا نقول: إن تأويل حديث الضلع لا يصح مهما كان القائل به .

* * *

(١) تفسير المنار (٨/٣٠٨).

البشر والإنسان

يعلم القارئ قبل اطلاعه على كتاب «أبى آدم» للدكتور عبد الصبور شاهين أن البشر والإنسان لهما معنى واحد هو ابن آدم، أو أبناء آدم. ولا يعرف لهذا مخالف من سلف الأمة أو خلفها.

لكن الدكتور شاهين يفاجؤنا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فجاء كتابه هذا ببدعة «العصر» وأعلن أن البشر غير الإنسان ، وأن الأمة طوال خمسة عشر قرنا من الزمان غفلت عن هذه الحقيقة ، أو ضل عنها بصرها وزاغ.

وكان الذى تقدم لنا فى هذه الدراسة أو المواجهة أن وقفنا علي خطوتين خطاهما الأستاذ الدكتور نحو الهدف ، الذى جعله نصب عينيه فى كتابه «أبى آدم» .

وها نحن أولاء نقف أمام خطوته الثالثة، والقارئ يعلم أن منزع الاستدلال على محاولة إثبات فكرته هو آيات القرآن الكريم.

وهذا من حسن حظنا؛ لأنه اختار الميدان الذى نحسن السبح والغوص فيه.

وخلاصة ما نواجهه معه هنا فى هذا المبحث الذى عنون له بـ «البشر والإنسان» هي ما قدَّم له هو فى مطلع هذا المبحث، وفيه يقول:

«إذا كان القرآن قد ذكر خلق البشر فى أربع آيات فقد ذكر خلق الإنسان فى خمس وثلاثين آية . . »[1] .

ثم ذكر الآيات حسب الترتيب النزولى موزعة بين ما نزل من القرآن بمكة، وما نزل بالمدينة.

وهو يريد من هذه المقارنة (البدائية) أن يقول إن البشر لما كان خلقا لا

---

(١) أبى آدم (٧٩) .

كرامة له، ومحكوما عليه بالفناء والانقراض ، لم يهتم به القرآن، فتحدث عن خلقه فى أربع آيات فحسب ..

أما الإنسان «الراقى» الذى اصطفاه الله بعد انقراض البشر الهمج؟ فقد اهتم به القرآن، وذكر خلقه فى خمس وثلاثين آية، يعنى بنسبة (١ – ٧) ؟

أما الآيات الأربع التى قال إنها مقصورة على خلق البشر، فنحن نتطوع بذكرها – هنا – ؛ لأن المؤلف اكتفى بمجرد الإشارة إليها، اعتماداً على أنه ذكرها فى غير هذا الموضع، وإليك هى :

الآية الأولى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً من طِينٍ ﴾
ص: [٧١] .

الثانية : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً ﴾
الفرقان: [٥٤] .

الثالثة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر: [٢٨] .

الرابعة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾
الروم: [٢٠] .

أما الآيات الخمسة والثلاثون فهى :

١ – ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ العلق: [٢] .

٢ – ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ الأعلى: [٢] .

٣ – ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين: [٤] .

٤ – ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُترَكَ سُدًى * أَلَم يَكُ نُطفَةً من مَنِىٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنهُ الزَّوْجينِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾
القيامة: [٣٥ – ٣٨] .

٥ – ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم من مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فى قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ المرسلات: [٢٠ – ٢٣] .

٦ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، ونحنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ ق : [١٦] .

٧ - ﴿ فَلْيَنظرُ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ﴾ الطارق : [٥ - ٧] .

٨ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ . . ﴾ الأعراف : [١١] .

٩ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾
يس : [٧٧] .

١٠ - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا . . ﴾
فاطر : [١١] .

١١ - ﴿ أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ، وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾
مريم : [٦٧] .

١٢ - ﴿ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾
طه : [٥٥] .

١٣ - ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾
طه : [١١٥] [1] .

١٤ - ﴿ أَفرأَيْتم مَا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾
الواقعة : [٥٨ - ٥٩] .

١٥ - ﴿ وإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا ، إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ الإسراء : [٦١] .

١٦ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾
الحجر : [٢٦] .

١٧ - ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ طِينٍ . . ﴾ الأنعام : [٢] .

---

(١) هذه الآية ذكرها المؤلف سهواً؛ لأنها ليست لها صلة بموضوع الخلق والتكوين، لذلك يجب رفعها من الإحصائية المشار إليها.

١٨ - ﴿ .. إنَّا خَلَقْنَاهُم مِن طِينٍ لازِبٍ ﴾ الصافات: [١١].

١٩ - ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ .. ﴾ غافر: [٦٧].

٢٠ - ﴿ أَكَفَرْتَ بالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ الكهف: [٣٧].

٢١ - ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ من نُطْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ النحل: [٤].

٢٢ - ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ نوح: [١٤].

٢٣ - ﴿ وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح: [١٧].

٢٤ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ... ﴾ المؤمنون: [١٢ - ١٤].

٢٥ - ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ .. ﴾ السجدة: [٧ - ٩].

٢٦ - ﴿ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ الانفطار: [٦ - ٧].

٢٧ - ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ الروم: [٤٠].

٢٨ - ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. ﴾ الروم: [٥٤].

٢٩ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ البقرة: [٣٠] (١).

٣٠ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴾ النساء: [١].

٣١ - ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ ﴾ الرحمن: [٣].

---

(١) وهذه الآية لا صلة لها بالخلق والتكوين فيجب رفعها من هذه الإحصائية .

٣٢ - ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالْفَخَّارِ ﴾ الرحمن : [١٤] .

٣٣ - ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان : [٢] .

٣٤ - ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ .. ﴾ الحج : [٥] .

٣٥ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

الحجرات : [١٣] .

هذه هي إحصائية المؤلف من آيات القرآن الكريم، ونذكر القارئ الكريم أن المؤلف قال فى التقديم الذى قدَّم به هذا المبحث أن خلق الإنسان ذكر فى القرآن فى خمس وثلاثين آية، وأن ذكر خلق البشر ذكر فى أربع آيات فحسب .

وهذا سهو آخر منه، والصواب أن يقول مواضع لا آيات سواء كان ذلك فى جانب خلق البشر أو خلق الإنسان لأننا إذا نظرنا إلى حديث القرآن فى سورة (ص) وجدناه آيتين لا آية واحدة . وكذلك حديث القرآن عن خلق الإنسان فى سورة « السجدة » وجدناه ثلاث آيات لا آية واحدة .

هذه ملاحظة عابرة نبديها على منهج المؤلف . أما مناقشته فى مراده من الاحصائية فنذكرها بعد سوق فقرات من تعقيبه على هذه الاحصائية البدائية، أو الظاهرية .

فقرة أولى من كلام المؤلف :

« ويلاحظ فى نصوص هذه الآيات، أن خلق الإنسان جاء بلفظه - أى بلفظ الإنسان - فى ستة عشر موضعاً، وأن بقية المواضع، وهى تسعة عشر موضعاً، يدل السياق فيها على أن المراد بها الإنسان، وليس البشر، حيث اكتفى النص بالإشارة دون العبارة، أو جاء الخطاب للناس.. أو كان النص لآدم - وهو فيما نرى - أول إنسان » (١) .

---

(١) أبى آدم (٨٣) .

وهذا تحكُّم مرفوض من المؤلف، حمله عليه التعصب لرأيه، وليس له دليل، ولا شبهة دليل فى ما لم يذكر بلفظ الإنسان أن المراد به هو الإنسان . فهذا الفهم انشق به الدكتور شاهين عن إجماع الأمة. ولولا التعصب لرأيه ما شذ عن إجماع الناس . وكان حريا به، لو أراد الإنصاف، أن يُعد هذه المواضع (المحايدة) مشتركة الدلالة على البشر والإنسان أو يرفعها عن إحصائيته هذه الفجة.

فقرة ثانية من كلام المؤلف :

« وتأتى آية سورة الحج (السورة الخامسة بعد المائة) فتخاطب الناس نصًّا وصراحة فتقول (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُم فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ . . .) . . وهى تجمع إشارتين إلى الأصل الأول، وهو التراب، وإلى الأصل الثانى البديل، وهو: النطفة [1] .

المؤلف يدعى أن البشر هو المخلوق من التراب أما الإنسان فهو المخلوق من العلق، والنطفة والعلقة .

ولما رأى آية سورة الحج تجمع بين التراب والنطفة والعلقة والخطاب فيها للناس وليس للبشر. ورأى أن هذا الجمع يبطل دعواه؛ لأن الناس – عنده – إنسان لا بشر، راح يتلمس حيلة، ليزيح دلالة الآية من طريقه . فماذا قال :

قال : أنها جمعت بين الأصلين: التراب الذى خلق منه البشر، والنطفة التى خلق منها الإنسان. وهذا تحريف لمعنى الآية؛ لأن الحديث فيها عن مخلوق واحد مرَّ خلقه – وما يزال يمر – فى مراحل مختلفة. وهذا من التأويل القريب المرفوض، الذى يكاد يكون لحمة وسدى عمل المؤلف فى كتابه «أبى آدم» ؟

مناقشة الاحصائية :

أما الاحصائية التى رصدها، فهى احصائية فجة لم يسبقها دراسة متأنية، وليسمح لنا المؤلف ويتسع صدره إذا قلنا إنها احصائية جائرة، لأننا إذا جاريناه جدلاً على ما ذهب إليه من التفرقة بين البشر والإنسان وسلمنا له بصحة ما قال. فإن الحشد الهائل من المواضع التى ذكرها فى جانب خلق الإنسان لا يجاريه عليه أحد لأمرين:

---

(١) أبى آدم (٨٤) .

الأول : أننا استبعدنا آيتين من هذه الاحصائية لا صلة لهما بالخلق والتكوين كما تقدم، إذاً بقى من الخمس والثلاثين آية ثلاث وثلاثون .

الثانى : أن الآيات الثلاث والثلاثين الباقية منها ثمانى عشرة آية من الممكن أن نطلق عليها أنها آيات محايدة . ينبغى أن ترفع من الاحصائية، وهى الآيات الآتية حسب الترقيم المسلسل الذى تقدم :

(٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥) [١] .

وضابط هذه الآيات أنها لم يرد فيها لفظ بشر ولا لفظ إنسان، فإذا رفض المؤلف رفعها فيلزمه ويلزمنا أن نجعل ما تدل عليه قسمة عادلة بين البشر والإنسان . وإن رفض هذا كذلك فالأمر عنده يكون قائماً على التحكم، وما دخل التحكم فى عمل إلا فسده .

وإذا افترضنا استجابة المؤلف لواحد من الأمرين (الرفع من الاحصائية أو الاشتراك الدلالى الجامع بين البشر والإنسان) صار حديث القرآن عن خلق الإنسان خمسة عشر موضعاً لا ستة عشر كما قال المؤلف .

وبهذا تهبط النسبة بين آيات خلق البشر وخلق الإنسان إلى (١ : ٧٥ر٣) بدلاً من (١ : ٧) .

ونحن على كل حال متمسكون بالواقع الذى عليه الأمة سلفا وخلفا، لغة، وعقيدة، من أن البشر والإنسان والناس والإنس، تدل كلها على شىء واحد هو بنى آدم أبى البشر، والإنسان، والناس والإنس .

وهى العقيدة التى مات عليها سلف الأمة الصالح وتابعوهم ، ونموت - نحن - عليها إذا شاء الله .

* * *

---

(١) نهيب بالقراء الكرام أن يعودوا لقراءة الآيات حسب هذه الأرقام ليشاركونا الرأى بعد الاقتناع .

الإنسان يخرج من البشر [1]

في هذا المبحث خاض المؤلف إلى «الأذقان» فى التعصب لاثبات دعواه فى الفصل بين (البشر) والإنسان ، وبذل قصارى جهده فى التقدم نحو الهدف الوهمى الذى جعله نصب عينيه ، وكان السلاح المفلول الذى استعمله بغية الوصول إلى الهدف هما الخيال الجامح إلى أبعد الحدود.

ثم التأويل التعسفى المرفوض.

ومن الطريف، أن الدكتور عبد الصبور شاهين، وقد عهدناه قبل كتابة هذا حصيفا ذكيا ، يفاجؤنا بعبارة «إبداعية» أنسب مكان لها أن توضع فى معاجم «الإنتاج الحيوانى» ذكرتنا - مع الاعتذار لسيادته - بـ «مشروع البتلو» الذى كان أحد موضوعات الصحافة فى فترة سابقة. جاء هذا فى فقرة قصيرة له، وفيها يقول عن تطور البشر المزعوم حتى صار إنسانا :

«فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشرى إنساناً، بل كان مشروع إنسان فى حيز الفطرة قبل أن يكون إنساناً فى حيز القوة» ؟! [2] .

فكلمة «مشروع» استخدمها المؤلف - كما ترى - كما استخدمت الصحافة من قبل هذه الكلمة فى تربية البتلو تحت إشراف وزارة الزراعة؟ .

والفرق بين المشروعين أن «مشروع البتلو» كان يشرف عليه خبراء من بنى آدم . أما «مشروع البشر» تحت التطوير فقد كان فى قديم الزمان تحت رعاية الملك الديان؟! .

ولم يقتصر ذكر كلمة «مشروع ، أو المشروع» فى كلامه على هذا الموضع، بل ذكره مرات فى كتابه «أبى آدم» ، الدكتور شاهين - هنا - يغرق فى الخيال أو الوهم بلا حدود، أو يرجم بالغيب بلا ضوابط .

---

(١) نحن فى هذه الدراسة أو المواجهة نتتبع المباحث التى يركز المؤلف فيها على اقتناص ما يراه دليلا على صحة دعواه من آيات القرآن الكريم، لذلك فإننا تجاوزنا مبحثا قبل هذا عنوانه «القرآن المكى» لأن ما فيه قد كرره المؤلف فى مواضع أخرى واجهناها أو سنواجهها بإذن الله.

(٢) أبى آدم (٨٨) .

ثم يغرق ويغرق مرة أخرى حين يكرر فى كتابه أن هذا المشروع ظل تحت الرعاية « الإلهية » المكثفة ملايين السنين ؟ يا سبحان الله؟ ملايين السنين، وهو مشروع إلهى؟ فلماذا هذا البطء يادكتور؟ أَلعَجْزٍ فى قدرة الله تعالى الله عما نقول علواً كبيراً؟ أم لحكمة غابت عن مدارك ذوى التبصير؟

تعال ياسيادة الدكتور نحتكم إلى كلام رب العزة، الذى تقتنص منه أدلتك على أفكار وهمية ؛ أو أفكار خارجة عن دائرة الوهم.

تعال نحتكم إليه من خلال الحقائق الآتية:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ البقرة: [١١٧].

وقوله: ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فيكونُ ﴾ آل عمران: [٤٧].

وقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: [٥٩].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ النحل: [٤٠].

وقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ مريم: [٣٥].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس: [٨٢].

وقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ غافر: [٦٨].

فهذه سبع آيات يخبر الله فيها عن نفسه، بأن أداة الخلق والتكوين عنده هى كلمة « كن » فيكون ما قضى وأراد دون مسافة فاصلة بين صدور الأمر، ووقوع المأمور به، بل أن بعض أهل العلم يقول إن الكلمة « كن » كناية عن الإرادة. فما يريده الله يكون ناشئاً عن الإرادة الإلهية دون احتياج إلى صدور أمر منه.

وأنت سيد العارفين - يادكتور - أن « الفاء » هذه تفيد أمرين:

(أ) ترتيب ما بعدها على ما قبلها وكون ما قبلها سببا فيما بعدها.

(ب) فورية وقوع ما بعدها.

والآيات السبع توسط « الفاء » فيها بين « كن - يكون » أفليس لهذا الاطراد

عندك دلالة على انعدام الفواصل الزمنية بين الكون والأمر به؟ لو كان الأمر كما يقول: أن مشروع تطوير «البشر» إلى «الإنسان» استمر عبر ملايين السنين لجاء ذلك في القرآن الكريم، لأنه أمر – لو كان حقا – جدير بأن يلفت الله أنظارنا إليه، أو على الأقل لأخبر عنه الصادق المصدوق – ﷺ – في أحاديثه وخلو هذين المصدرين من الحديث عنه دليل على عدم صحته أفلا يكون ما تقول ياسيادة الدكتور تَقَوُّلاً على الله بغير علم؟ والله قد نهانا مرات في محكم كتابه أن نقول عنه شيئاً بغير علم. إن ما تقوله – ياسيادة الدكتور – قُبَّعة سوداء في غرفة مظلمة لا وجود لها» كما يقول الفلاسفة والمناطقة عن الأمور الوهمية.

والله عز وجل أوقفنا في كتابه العزيز على مراحل تكوين الأجنة في بطون أمهاتها، وتكرر ذكرها في القرآن أكثر من مرة ، والجنين يتكون في رحم أمه تسعة أشهر، أفما كان مشروع تطوير «البشر» إلى «إنسان» الذي استغرق ملايين السنين أولى بالذكر في القرآن الكريم من مراحل تكوين الأجنة في بطون الأمهات؟

ثانياً : نسألك ياسيادة الدكتور : خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر أم خلق الناس ؟ أنت لابد قائل في الجواب: بل خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر، لأن الله عز وجل قال في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ غافر: [٥٧] .

هذا الخلق الأكبر من خلق الناس خلقه الله في ستة أيام كما جاء في القرآن مرات عديدات:

ففي سورة الأعراف [٥٤] جاء قوله تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴾ .

وفي سورة السجدة [٤] قال عز وجل: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴾ .

وفى سورة الحديد [٤] قال جل شأنه :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ .

فإذا كان خلق السموات والأرض وما بينهما من أفلاك ونجوم وكواكب، هذا العمل الضخم الفخم تم انجازه بما فيه من دقائق وأسرار، وإحكام في ستة أيام فكيف يقع فى الوهم أن (مشروع تطوير « البشر » إلى «إنسان » استغرق ملايين السنين. ؟ ولو كان الأمر هكذا لذكر الله تعالى بيانا عنه كما ذكر مدة خلق الكون، ومراحل الأجنة فى بطون أمهاتها.

لو لم يكن الله قد قال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ . . ﴾ .

ولو لم يكن قد قال: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا . . ﴾ الصافات : [١١] .

لو لم يكن قد قال هذا لكان لما يقول الدكتور وجه من التصور، أما وقد قال الله ما قال فى المقارنة بين خلق الأجرام الثابتة، وما عداها فلا ينبغى لأحد أن يتصور خلاف ما قال، ولو على سبيل الاحتمال .

ما هذا الاضطراب :

الذى يصارع ثوابت الحق يصيبه الإعياء، فإذا حاول تلافى ذلك الإعياء فأمامه واحد من طريقين:

فإما أن ينسحب من الميدان، فيسلم . وإما أن يصر على المصارعة الفاشلة فيقع فى الاضطراب لاجئا إلى خداع الحيل.

ونرى المؤلف فى بعض محاولاته فى هذا المبحث قد أحس، وهو فى ميدان المصارعة، أن آيات القرآن تنسف فكرته القاضية بأن « البشر» هو غير « الإنسان » .

المؤلف يرى أن « البشر» مخلوق من « التراب » وأن «الإنسان » مخلوق من غير « التراب » .

وإذا بآية فى سورة الحجر [٢٦] تقف فى طريق فكرته عقبة كؤودا، وهى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ ﴾ .

الآية تنص على أن «الإنسان» لا «البشر» خلقه الله من صلصال من حمأ «مسنون» والصلصال شكل من أشكال التراب .

وفي السورة نفسها [٢٨] يقول عز وجل:

﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمأ مَسْنُونٍ ﴾ .

يعني أن القرآن الذى يستنطق المؤلف آياته لينتزع منها أدلة على صحة دعواه، وهى أن البشر غير الإنسان ، هذا القرآن لا يفرق بين الإنسان ، والبشر، أو بين البشر والإنسان . فكلاهما مخلوق من تراب ، ومن صلصال من حمأ مسنون؛ لأن البشر هو هو الإنسان، ولأن الإنسان هو هو البشر، وهذه ثوابت الحق التي يصارعها الدكتور، هاتان الآيتان كفيلتان بأن يردا المؤلف – لولا التعصب لرأيه – إلى الحق وثوابت الحق. لكنه قرر السير نحو هدفه الوهمى، وقرر أن يحمل الكلام على غير المراد منه فماذا قال؟

إليك قوله من فقرة صدَّر بها مبحث: «الإنسان يخرج من البشر» .

«الحديث عن الأصل الترابى يرتبط غالباً بالبشر، ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول: ﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشراً من صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فِيهِ مِن رُّوحِي فقَعوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ والربط بين الإنسان والصلصال سياق تتولى تفسيره الآيات التالية التى تحدد المراد بالإنسان، وهو البشر» [(١)] .

فتأمل إلى أى مدى وقع المؤلف فى الاضطراب، بعد أن التمس شيئًا ما من خداع الحيل. أما خداع الحيل فتراه فى قوله: إن القرآن يرد الإنسان إلى أصل البشر. ويتفادى الاعتراف بأن القرآن، وهو وحده المسموع الكلمة فى الأمور الغيبية، لا يفرق بين البشر والإنسان.

وأما الاضطراب فتراه فى قوله «التى تحدد المراد بالإنسان وهو البشر» ؟!

---

(١) أبى آدم (٨٨) .

إن فى قوله هذا تحطيمًا لفكرته الوهمية التى سبق ذكرها مرات لأن معنى عبارته هذه: أن البشر والإنسان شيء واحد.. حسنا، فلماذا إذن الإصرار على التفرقة بينهما ياسيادة الدكتور ؟!

التنكير :

من طرائق التعبير فى اللغة التنكير والتعريف، ولكل منهما أغراض نحوية وبلاغية، ومن المعانى التى يفيدها التنكير الجهالة، والإشارة إلى أن الشيء المنكر لم يسبق للمخاطب علم به مثل أن يقال: رجل . فإذا كان للمخاطب علم به قيل: الرجل ففى الحالة الأولى تقول – مثلا – : صادقت رجلا، وفى الثانية تقول: صادقت الرجل.

إذن فبداية الحديث عن الشيء غير المعروف للمخاطب تكون بالتنكير فإذا أعيد الحديث عنه ، وقد حصل للمخاطب علم به جيء به في المرة الثانية معرفة لا نكرة.

مثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى فى سورة المزمل [١٥ – ١٦] :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَونَ رَسُولاً * فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ .

نظَّر الله فى الآية الأولى بين إرساله إلينا رسولاً، وبين إرساله إلى فرعون رسولاً . وجاء ذكر الرسولين نكرة فى الآية الأولى رسولاً – رسولاً . لوقوعهما فى بداية الكلام.

لكن الآية الثانية جاء فيها ذكر «الرسول» معرفة بدخول الألف واللام عليه.

والسبب أن ذكره ورد منكَّراً فى المرة الأولى، فأعيد ذكره معرَّفا لحضوره فى ذهن المخاطب.

هذا هو ما تقتضيه قواعد النظم النحوى. أما البلاغة فإنها تستخدم التنكير لمعان أخرى كثيرة، كالتعظيم والتحقير، والقلة والكثرة.

ومما استدل المؤلف به على تحقير شأن البشر وانقراضهم وهمجيتهم، أن آيات خلق البشر الأربع جاء فيها «بشر» منكَّراً هكذا :

١ – سورة ص : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ﴾ .
٢ – سورة الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذى خَلَقَ مِنَ الَماءِ بَشَرًا .. ﴾ .
٣ – سورة الحجر : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا .. ﴾ .
٤ – سورة الروم : ﴿ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ فَإِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ .

والسبب فى مجيئه نكرة فى الآيات الأربع هو ما أشرنا إليه من المعنى النحوى كما تقدم.

لكن الدكتور شاهين يتجاهل المعنى النحوى – وهو الأصل هنا – ويحمل التنكير على المعنى البلاغى، وهو التحقير والتهوين من شأن البشر؛ لأنه سبق أن حكم على البشر بالغشم والهمجية، ونفى أن يكون لهم سمع أو بصر، أو حتى عقل.

وهذا إغراق منه فى التخيل الوهمى، واستحداث لنوع من مخلوقات الله لا يعرف له مثيل فى المخلوقات ذوات الروح، فهل سمع أحد أن الله خلقا من هذا النوع.

كائن حى فيه روح أحدثت فيه الحياة، ومع ذلك ليس له آلة سمع، ولا آلة بصر، ولا عقل ، ولا لغة ؟!

أليس هذا ادعاء على الله بما لم يرده ولم يخلقه؟

يقول المؤلف فى توظيف التنكير للتحقير، والتعريف للتعظيم.

« وكل ذلك الفرق الهائل بين البشر والإنسان يشى به الاستعمال القرآنى، وهو فرق ما بين التعريف والتنكير فى هاتين الآيتين من سورة الحجر » (١) .

ودعوى المؤلف – هنا – مردودة؛ لأن « بشراً » جاء ذكره معرفة فى آيات أخرى سنذكرها فى موضعها بإذن الله، وأيا كان الأمر فإن تنكير « بشراً » فى هذه الآيات الأربع التى أساء المؤلف فهمها، هذا التنكير لم يرد به التحقير كما قال، ولكن سببه أن الخطاب من الله للملائكة كان لأول مرة يعلمهم فيها بخلق ذلك البشر فكان الأصل أن يأتى « بشراً » نكرة لا معرفة.

---

(١) أبى آدم (٨٩) .

أما آية الفرقان ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. ﴾ فالتنكير فيها للتعظيم لا للتحقير كما فهم أو ادعى المؤلف.

الأجل المقضى فى الأنعام :

من تعامل المؤلف مع الآيات القرآنية وحمل معانيها على ما يوافق هواه، ما قاله فى آية سورة الأنعام، وهى:

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢].

وقد ورد فى الآية أجلان ، أجل قضاه الله عز وجل، وأجل فى علمه لم يُقْضَ بعد ، وسيقضى وفق علم الله ، ثم ذكر المؤلف خلاصة ما قاله العلماء فى المراد لله من الأجلين على النحو التالى :

« فإما أن يكون الأجل الأول - يعنى الأجل الذى قضاه الله - أجل الموت ، والآخر القيامة .

وإما أن يكون الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى ما بين الموت إلى البعث.

وقيل الأول النوم والثانى الموت »[1] .

ثم عقب قائلا :

« ونحسب أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشرية السابقة على العهد الإنسانى ؟!

وأما الأجل المسمى - يعنى الثانى - فهو أجل كل فرد من المكلفين .. ولا مانع فى نظرنا من إرادة ذلك فى الآية » ؟[2] .

وهذا من بدع التفاسير وأشدها غرابة ونكارة، لأن هذا المعنى الغريب لم يخطر على بال أحد من خاصة الأمة وعامتهم، فلا الذى نزل عليه الوحى- ﷺ- فهم هذا المعنى، ولا أصحابه ولا التابعون، ولا أحد من المفسرين قدماء

(١ ، ٢) أبى آدم (٨٩) .

ومحدثين، وإنما الدكتور شاهين وحده يتحمل ثقل هذه البدعة. ونراه - من خلال تعبيراته - يقول بلسانه ما يرتاب فيه قلبه . فهو مرة قال: «ونحسب» والحسبان من أظهر معانيه الظن، وبعض الظن إثم، والظن لا يغنى من الحق شيئاً.

ومرة يقول: «ولا مانع فى نظرنا» وهذا دليل على أنه يدرك أن هذا ممنوع فى نظر غيره، وغيره هو كل الأمة فى جميع عصورها وأقطارها.

أن الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه «أبى آدم» يقف وحده فى جبهة، وتقف الأمة كلها أمامه فى جبهة أخرى، وكفى بذلك اعتزالاً. وكفى به ابتداعا لم يأذن الله به ولا رسوله ولا صالحو المؤمنين.

إن المسئول عن هذا التخبط غير المعهود من الدكتور شاهين آفة واحدة من آفات البحث العلمى، فهو قد كوَّن فى نفسه فكرة ، وتشبَّع بها، وأغرته غرابتها، ثم بدأ فى الاستدلال عليها من آيات القرآن، وحمل فى يمناه معولاً صلبا ليحطم به كل الموانع، ويزيل به كل السدود، ومع أن الدكتور يحتفظ بقدسية النص القرآنى لفظاً ونظماً، فإنه مسئول عن تحريف معانيه قصداً وعمداً.

ولو كان عكس منهجه هذا، فاستقرأ آيات القرآن ليرى هل فيها ما يؤيد فكرته أو ما ينافيها لكان له موقف آخر يحمده له الله والناس، ولكان موقفه هذا هو الأليق بمكانه ومكانته فى حقل الدعوة.

أما أن ينهج الدكتور الفاضل هذا المنهج المعوج ، وهو القول بالرأى المذموم، فتلك عثرة ما كان لها أن تصدر عن مثله قط. ولله فى خلقه شئون وشئون.

عود للتحريف :

تناول المؤلف بعد ذلك آيات أخرى، وفسرها تفسيراً بدعياً أزاحها به من طريقه نحو محاولاته المستميتة لإثبات فكرته والانتصار لها بتحريف معانى الآيات المحكمات.

وبهذا التفسير القائم على التأويل المرفوض أحال المؤلف معانى الآيات من الدلالات الواقعية الواضحة، التى بنت عليها الأمة عقيدتها القويمة ، ثم زج بها فى غيبوبة الأوهام الأبعد تصوراً من عمل الخيال الجامح؟!

والآيات هى :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴾ [غافر : ٦٧] .

المسلمون من عصر النبوة حتى الآن يفهمون، وفى مقدمتهم خاتم الرسل، أن هذه الآية تتحدث عن المراحل التى يمر بها بنو آدم عبر عملية الخلق والتكوين، وأولها المرحلة الترابية ، وهى بالنظر إلى آدم عليه السلام عملية خلق مباشر من التراب، أما بالنظر إلى ذريته فهى مرحلة أولى؛ لأن النطفة تتكون من الأغذية، وهذه الأغذية مصدرها الأرض سواء كانت حيوانية أو نباتية. ثم تتحول النطفة إلى علقة، وتستمر بعد ذلك عمليات الخلق والتكوين فى أرحام الأمهات حتى الولادة.

هذا هو الفهم الصحيح الذى أجمعت عليه الأمة، أما المؤلف فيخرق هذا الاجماع، ويدعى الفصل التام بين المرحلة الترابية، ومرحلة النطفة .

فالمرحلة الترابية كانت هى العملية الأولى والأخيرة فى خلق البشر الغشيم الذى انقرض ولم يعد له أثر ؟

والمرحلة النطفية هى العملية الأولى فى خلق وتكوين نوع جديد مُحسَّن هو الإنسان ؟

ثم يقول بعد ذلك بالحرف : « وهما مرحلتان منفصلتان تماماً وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخى (ثم) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما » [1] .

المسافة الزمنية التى يشير إليها المؤلف هنا، هى فى إجماع الأمة سلفاً وخلفاً ما بين ما تنتجه الأرض من مواد غذائية شاملة تناول الإنسان لها، ثم إفراز الماء الحامل لحيوان الاخصاب عند الأزواج .

وتبدأ عملية التخليق فى رحم الأم من ساعة « التلقيح » إلى مضى أربعين يوماً . ثم تتحول النطفة إلى علقة، والعلقة إلى مضغة. ثم تأتى بعد ذلك عملية خلق العظام وكسوته باللحم، وهكذا .

---

(١) أبى آدم (٩٠) .

ومجموع أيام الخلق والتكوين داخل الرحم، حتى الولادة هى ٢٧٠ .يوماً تقريباً (تسعة أشهر) . أما عند المؤلف فإن المسافة الزمنية بين مرحلتى التراب والنطفة فهى ملايين السنين؟! ولم يحدد المؤلف كم هى ملايين السنين، وهى على الأقل إذا أخذنا بأقل الجمع ثلاثة ملايين سنة، أما إذا أرخينا العنان فى فهم تحديد هذا الجمع فأمامنا أرقام هائلة لا يعلم حصرها إلا الله والسبب فى هذا كله هو أن المؤلف يصر على الفصل التام بين البشر وبين الإنسان .

ثم يعقب المؤلف على فهمه للآية فيقول بعد أن استدل بآية سورة (المؤمنون) وهى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِن طِينٍ﴾ يقول :

« وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال ادماج العمليتين فى عملية واحدة . فالإنسان خلق من سلالة نسلت من طين أى أنه لم يخلق مباشرة من الطين، فأما ابن الطين مباشرة فهو أول البشر. وكان ذلك منذ ملايين السنين » ؟! [1] .

لقد جمع المؤلف فى هذه العبارة بين حق وباطل :

فأما الحق فإن أول البشر، وهو آدم عليه السلام كان قد خلق خلقاً مباشراً من التراب . أما ذريته بدءاً من قابيل وهابيل إلى يومنا هذا فقد خلقوا، ويخلقون، من سلالة أصلها الطين .

هذا حق لا ننازع فيه .

أما الباطل الموغل فى البطلان فهو ما يدعيه المؤلف من الفصل بين المخلوق من التراب، والمخلوق من النطفة، وهى فكرته « الأم » التى يحاول أن يلتمس لها أدلة من القرآن غابت عن ذوى التمييز منذ عصر الرسالة إلى يوم الناس هذا .

وفى الآية وردت ثلاث « ثمّات » : ثم — ثم — ثم . وقد فسر المؤلف « ثم » الأولى بأنها تدل على فاصل زمنى قدّره بملايين السنين . فهل ياترى يكون الفاصل الزمنى فى « ثم » الثانية ملايين السنين، وفى « ثم » الثالثة ملايين السنين طرداً للباب على وتيرة واحدة ؟

---

(١) أبى آدم (٩٠) .

أم يفرق بين الدلالات الثلاث . فإن فرَّق فهذا ظلم لـ « ثم » الثانية ، و « ثم » الثالثة، لأنه ترجيح بلا مرجح وهو أحد أدلة البطلان.

وإن سوَّى بين الثلاث ولم يفرق ، وأعرض عن إجماع الأمة، فقد وقف وحده أمام الأمة ، يقول غير ما قالت ، والأمة – كما ورد فى الحديث – لن تجتمع على ضلالة.

وعلى نفس المنوال السابق من التأويل التعسفى المرفوض، حمل قوله تعالى فى سورة نوح ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ كما صنع نفس الشىء مع آيات سورة السجدة:

﴿الَّذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ من طين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلاَلَة من ماءٍ مَهين * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيه من رُّوحه، وَجَعَلَ لَكُمُ الَّسمْعَ والأَبْصَارَ والأَ فْئِدَةَ ، قَليلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧ – ٩] .

يعلق الكاتب على هذه الآيات فيقول مستخدما كلمة المشروع المضحكة مرة أخرى:

« فخلق الإنسان بدأ من طين، أى فى شكل مشروع بشرى؟

ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من طين) ثم كانت التسوية، ونفخ الروح، فكان (الإنسان) هو الثمرة فى نهاية المطاف، عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة » [١] .

يلاحظ القارئ – هنا – أن المؤلف يسوق أخباراً عن الله (يخبر عن الله) وهذه مجازفة تحار العقول فى صدورها عن رجل مثل الدكتور عبد الصبور شاهين فلو كانت قد صدرت عن حداثى، أو علمانى، لما حرَّك لنا ساكنا، فالشىء من معدنه لا يستغرب .أما صدوره عن الدكتور عبد الصبور شاهين فهذا ما تحار فيه العقول؛ لأنه يعلم أن الإخبار عن الله لا يكون إلا من رسول معصوم أو بما أخبر الله به عن نفسه. أما مجرد الظن والتخمين فالدكتور يعلم أنه تقوُّل على الله عز وجل وخيم العواقب.

---

(١) أبى آدم (٩١) .

أما قوله تعالى في سورة السجدة ، وهو : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ .. ﴾ فقد حرَّف معناه عن طريق التأويل المرفوض، وهو أسرع أسلحته استعمالاً في نصوص الآيات، التي تقف أمامه، وهو يخطو نحو الهدف المتوهم. يقول المؤلف في التقديم لهذه الآية : « وحسبنا أن نلاحظ – هنا – ما يشير إلى بعض مراحل التسوية في قوله تعالى في سورة السجدة » (١) .

ثم يذكر الآية التي أثبتناها آنفا، ثم يعقب عليها بقوله:

« فقد تم هذا الجعل – يعني جَعْلَ السمع والأبصار والأفئدة – خلال مراحل التسوية، وهو ما يفترض أن البشر كان في المراحل الأولى بلا سمع ، ولا بصر، ولا فؤاد (عقل) تماماً كما هي حال المولود حين يخرج من بطن أمه، لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات في المرحلة الأولى من الوجود » (٢) .

ثم يستدل على هذا الفهم الغريب بقوله تعالى في سورة النحل:[آية :٧٨] ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ليس لهذا الكلام من سند إلا الخيال أو الوهم مع ضعف الملاحظة بين حال المشبه والمشبه به، أو المقيس والمقيس عليه فهو افتراض أن البشر كان كتلة من عظم ولحم ودم بلا مخ ولا بصر ولا عقل هذا هو المشبه.

(أما المشبه به، وهو إخراج الأجنة من بطون أمهاتها، فلم يخرجهم الله بلا سمع ولا بصر ولا إحساس هو أول مراحل التعقل. والله هنا يمتن على عباده بأن زودهم بوسائل تحصيل العلم، وهي السمع والأبصار، والعقل وجميع وسائل الإدراك فما أبعد التماثل بين البشر حسب توصيف المؤلف له، وبين الإنسان السميع البصير العاقل .

فجَعْل السمع والأبصار والأفئدة سابق على الإخراج من بطون الأمهات . أما الحالة التي يشير إليها الدكتور عقب ولادة الطفل فهي حالة عابرة قد تقع خارج

(١ ، ٢) أبي آدم (٩١) .

نطاق الزمن، لأن سمع الطفل وبصره أسرع نضجاً من نموه الجسدى والعقلى. ولم يعهد الناس الأطفال يولدون كتلة لحمية، ثم تشق لهم آلات السمع (الآذان أو آلات الإبصار (الأعين) بعد خروجهم من بطون أمهاتهم ؟!

والعجيب أن المؤلف بنى على هذا الوهم وهماً آخر، وصاغه فى صورة «نتيجة منطقية» بلا مقدمات صغرى وكبرى صادقة، تأمل عبارته الآتية:

«لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال، بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول، ثم جعل لهم هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال» (١) .

فقد بدأ هذه المقولة بأداتين للتوكيد الجزمى الصارم، وهما اللام وقد ، ثم أسند هذا الخلق - الوهمى - إلى الله عز وجل وهذه جرأة غير محمودة ، وإخبار عن الله بغير علم؛ لأن هذا الخلق ينسب إلى الله على وجه صحيح داخل أرحام الأمهات ، أما سيادة الدكتور فيجزم - كما ترى - بأن هذا الخلق حدث قبل التلقيح فى أرحام الأمهات. وعلى مدى ملايين السنين فياترى من الذى أنبأه بهذا الغيب، الذى لا يملك الإحاطة به سوى علام الغيوب ؟!

الخلق الآخر :

فى آيات سورة «المؤمنون» سرد تفصيلى محكم لمراحل تكوين الأجنة فى أرحام الأمهات ، وردت هذه المراحل على هذا النسق :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِين ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [١٢ ، ١٣].

وقف المؤلف أمام قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

وقد نص المفسرون على معنى هذه العبارة ، وأصح ما قالوه أنه خلق آخر

(١) أبى آدم (٩١ ، ٩٢) .

باعتبار أن نفخ الروح فيه ينقله من المراحل الأولى التي لم يكن فيها ذا روح إلى مرحلة بعث الروح فيه فصار حيا سميعاً بصيراً متحركاً [١] .

ويمكن أن يضاف إلى هذا المعنى الصحيح معنى صحيح آخر هو أن الجنين بعد بعث الروح فيه وولادته يصبح خلقاً آخر غير أبيه وأمه اللذين أنجباه، وغير غيره من المخلوقين العقلاء .

أما المؤلف فقد أخضع هذه العبارة لمعنى يخدم فكرته من التفرقة الجازمة بين البشر الهمجي الذى انقرض وزال أثره من الوجود، والإنسان الذى ظهر فى الوجود بعده. وإليك قوله فى هذا المعنى:

«لقد مر النص الكريم بالمراحل المختلفة، التى تبدأ بالنطفة وتنتهى بالإنسان، فى هذا الإيجاز المحكم، الذى يتضمن حقائق الأطوار فى ذلك القرار المكين، رحم المرأة، وهكذا عبر البشر كل الأطوار، فصار خلقاً آخر (إنساناً) فتبارك الله أحسن الخالقين» [٢] .

الذى فهمناه من هذه العبارة أن المؤلف فى أولها يُسلم بأن هذه المراحل تتم داخل أرحام الأمهات بالنسبة لكل طفل ، وهذا حق، ولكنه فى آخرها ينقلها من أرحام الأمهات إلى الدنيا الفسيحة ، والزمن الطويل (ملايين السنين) ليجعل ذلك فيصلا بين البشر المنقرض، إلى الإنسان المستمر الحياة ؟!

وقد اجتمع – هنا – الخيال الجامح ، والتأويل المرفوض .

الأطوار :

لم يفت المؤلف أن يخضع قوله تعالى فى سورة نوح [١٤] ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ للتأويل القهرى الموافق للهوى فيرى أن كلمة «أطواراً» فى الآية ذات دلالة تاريخية ومادية معاً.

فالدلالة التاريخية هى المراحل الزمنية المتطاولة (ملايين السنين) التى مر بها خلق البشر، وتقلبهم فى أطوار التسوية والنفخة من روح الله .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى ١٢ / ١١٠) .

(٢) أبى آدم (٩٢) .

والدلالة المادية ، هى المراحل التى يمر بها الجنين فى بطن أمه ؟!

ومن التعصب الممقوت للرأى أن المؤلف يقدم ما يراه هو داعما لفكرته الوهمية، على الرأى الصحيح الذى لم تعرف الأمة – ولن تعرف – سواه .

وهو معذور من وجهة نظره – لأنه مصمم على أن يفرض على الأمة بدعة ما قال بها أحد من سلفها ولا من خلفها، ولو لم يحمل فى يمناه ذلك «المعول» الذى يحطم به كل الصخور التى تجبره على النكوص والارتداد أو الوقوف بلا حراك، لضيع على نفسه فرصة هذا الكشف، الذى لا وجود له إلا فى الأوهام .

وبدعته هذه – فى الواقع – بدعتان : بدعة فى فهم كتاب الله العزيز، وبدعة فى الاعتقاد، تفصل بين البشر وبين آدم وهما مخلوق واحد فى صريح القرآن وفى الواقع المحسوس على طول الزمان وامتداد المكان ؟!

* * *

الطريق إلى الجنة [1]

طَرَقَ المؤلف في هذا المبحث الذى يدعوه « الفصل الثامن » عدة مسائل ينبغي الوقوف أمامها والرد عليها .

وأولى هذه المسائل ما عنون له في صدر المبحث بقوله : « . . العلاقة بين البشر والإنسان » والمؤلف - كما يعلم القارئ - يفصل فصلا حاسما بين البشر والإنسان، وهى الفكرة « الأم » فى كتابه « أبى آدم » والعلاقة، أية علاقة، لا تكون إلا بين الأمرين المختلفين، أو الأمور التى يباين كل أمر منها الآخر، والأمور المختلفة قد يكون بينها علاقة من بعض الوجوه، إذا لم يكن الاختلاف بينها كاملا .

وبعضها لا يكون بينها أى نوع من العلاقات .

لكن المؤلف رأى نفسه مضطراً لايجاد علاقة بين البشر والإنسان، ليتفادى عقبات ضخمة فى النصوص القرآنية، التى اتخذ منها مصدراً للاستدلال على صحة دعواه، وهى الفصل بين البشر والإنسان لأن آيات القرآن لا تفصل بينهما . وقد تقدم لنا الإشارة إلى أن القرآن كما ورد فيه أن الله خلق البشر من صلصال من حمأ مسنون، ورد فيه أن الله خلق الإنسان - كذلك - من صلصالٍ من حمأ مسنون، فالبشر والإنسان مدلولهما فى القرآن وفى اللغة وفى العقل وفى الاعتقاد واحد . وهذا بالطبع يعكر على المؤلف صفوه، ويهدم فكرته (عقبا على رأس) .

لذلك فهو مضطر لأن يعترف بوجود علاقة بينهما، لكن لا من كل الوجوه . فما هى تلك العلاقة التى اعترف بها المؤلف مضطراً لا مختاراً ؟

العموم والخصوص :

هذه هى العلاقة التى اعترف بها . بين البشر والإنسان وفى اعترافه بها تراه يقول بالحرف :

---

(١) قبل هذا المبحث مبحث عنوانه « القرآن المدنى » وقد تجاوزناه لخفة وزنه فى مجال هذه المواجهة خشية التطويل .

« حقيقة لا ريب فيها لدينا، هى أن بين البشر والإنسان عموماً وخصوصا » فالبشر لفظ عام فى كل مخلوق ظهر على وجه الأرض، يسير على قدمين منتصب القامة. والإنسان لفظ خاص، بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته. فكل إنسان بشر. وليس كل بشر إنساناً والمقصود هو طبعا المعنى الأول، الذى استعملت فيه الكلمة « بشر » فى آيات القرآن، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال » [1].

هذه العلاقة التى أقر بها المؤلف بدعة، لغوية، تترتب عليها بدعة فى الاعتقاد. فمعاجم اللغة كلها: قديمها وحديثها لا ترى فيها ما يدعيه المؤلف. فالبشر فيها هو الإنسان وهو الناس، وهو الإنس، أو هو ما يقابل الملائكة والجن من العقلاء. وبهذا نزل القرآن، وعلى هذا جاءت عقيدة الأمة سلفا وخلفاً.

ونسأل هذا السؤال: لو كانت علاقة العموم والخصوص هذه هى الصواب بين البشر والإنسان. فكيف تغيب عن رسول الله ﷺ وعن صحابته، وعن تابعيهم، وعن علماء الأمة وعن الناس جميعاً، ولا يعرفها إلا رجل واحد من الأمة بعد عمرها هذا الطويل ؟

أتعيش الأمة على مدى خمسة عشر قرنا وهى لا تعرف هذه المعلومة الرائعة ؟!

بل أن الجهل لا يقتصر على أمة خاتم النبيين، بل سيلف بظلامه جميع الأمم الغابرة، وجميع الرسل الذين لا يعلم عددهم إلا علام الغيوب ؟!

إن سيادة الدكتور شاهين يضع نفسه فى أضيق المآزق وهو يتصور هذه الفكرة، ويستمر فى الدفاع عنها، رغم صفارات الإنذار، التى دوَّت بها الآيات كالرعد القاصف، كى يكف عن الخطو، ولكنه أبى، وهذا هو الذى يوقعنا فى الحيرة إذا حاولنا الإجابة على هذا السؤال:

● كيف يصدر من رجل فى وزن الدكتور عبد الصبور شاهين هذا الكلام المرفوض دينا وعقيدة، ولغة، وعرفا ؟!

---

(١) أبى آدم (٩٦).

سؤال نتركه - مضطرين - بلا جواب .

● **خلو المجتمع البشرى من التكليف :**

ومن غرائب مدعيات المؤلف، أنه بعد أن سلب عن مفهوم «البشر» كل وسائل الإحساس، وصورهم فى أشكال ممسوخة لا تعرف لهم وجها من قفا، ولا بطنا من ظهر، ادعى أنهم كانوا مهملين من جانب الله، بل هم كالأنعام أو هم أضل:

فلم يكلفهم الله بمعرفة ذاته، ولم يطالبهم بتوحيده، ولم يأمرهم بخير، ولم ينههم عن شر، ولِمَ لم يكونوا كذلك عند المؤلف وهم - عنده - صم بكم عمي ، فى صورة جماد متحرك، ولكن حركاته وسكناته همجية غشيمة ليس من ورائها قصد ولا إرادة ؟!

وهذه الدعوى من المؤلف هى - كما يمثل الفلاسفة والمناطقة لكل أمر وهمى - القُبَّعة السوداء التى يُبحَثُ عنها فى غرفة مظلمة لا وجود لها» .

وفى هذه الدعوى يقول المؤلف :

«ولأمر ما وجدنا القرآن لا يخاطب البشر، بل يخاطب الإنسان، والتكليف الدينى منوط بصفة الإنسانية لا بصفة البشرية، فلم يعد للبشر وجود منذ ظهر آدم عليه السلام وتناسلت ذريته، وورثت الأرض، وما عليها» (1) .

هذه الدعوى نريد أن نواجهها هنا مواجهة قصيرة، ولكنها حاسمة وربما عدنا إليها فى موضع لاحق.

فى بداية المواجهة نقول للمؤلف: تعال نحتكم معا إلى الفيصل بين الحق والباطل، وهو القرآن الكريم، وأنت اخترت القرآن حَكَماً فى محاولاتك إثبات مدعياتك كلها.

وقبل أن نحتكم نحن وأنت إليه نسألك : أليس الذكرى والإنذار من أدوات التكليف التى استخدمها القرآن كثيرا فى الترغيب والترهيب، وخط سير الدعوة إلى الله فى القرآن وسائر الكتب السماوية المنزلة على الرسل يعتمد - فيما

---

(1) أبى آدم (98) .

يعتمد – على قطبى التذكير والإنذار، نحن على يقين أن الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين المعروف فى حقل الدعوة لا يختلف معنا فى أن التذكير والإنذار قطبان جليلا الشأن فى دعوة الرسل – والدعاة من بعدهم – إلى الله وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وهذه بديهة من البدائه المجمع عليها بين العقلاء. أليس كذلك يادكتور ؟

إذن تعال نحتكم إلى فيصل ما بين الحق والباطل، والصواب والخطأ :

● ففى سورة آل عمران الآية [٧٩] يقول الله جل شأنه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللَّهِ . . . ﴾

فقد وضع القرآن أفراد البشر فى هذه الآية موضعا فوق درجة التكليف العام (العادى) الذى هو صفة لكل فرد منهم ذلك الموضع (الفوق) هو :

– أن البشر صالحون لأن ينزل الله على من يختار منهم وحيا من عند الله (الكتاب) .

– أن البشر صالحون لأن يجعل الله من يختار منهم ولى أمر أو حاكما عاما لشعب أو أمة (الحكم) .

– أن البشر صالحون لأن يتخذ الله منهم أنبياء (النبوة) وهذا فضل الله فى أعلى درجاته يهبه الله لمن يشاء من البشر.

● وفى سورة المدثر الآية [٣١] قال أحكم الحاكمين :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ .

● وفى السورة نفسها الآية [٣٦] يقول رب العالمين :

﴿ نَذِيراً لِلْبَشَرِ ﴾ بعد أن أقسم ببعض آياته الكونية . فلو كان البشر غير مكلفين لما أنزل الله عليهم وحيا، وما جعلهم ساسة الناس على الأرض، وما بعث منهم رسولا ولا نبيا، وما لفت أنظارهم مذكراً لهم، وما أنذرهم بطشه وعقابه. أليس هذا هو التكليف بدرجاته العليا والدنيا يادكتور عبد الصبور ؟

لو كنا نواجه غيرك لقلنا له: أم أن للتكليف معنى آخر عندك لم يعلمه الله، ولا رسله، ولا صالحو المؤمنين؟

شيء واحد يزيل كل هذه التحكمات والمغالطات، هو أن تقر أن البشر والإنسان وصفان لموصوف واحد. إذا أقررت بهذا وقفت مع الأمة في صفٍ واحد، وإن أصررت - ولا نخالك تصر - وقفت وحدك في صف، ووقفت الأمة كلها وراء رسولها في صف واحد أمامك.

ياسيادة الدكتور : هل أنت ما تزال متمسكا بقولك:

«أما الإنسان فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر) ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله، تمهيداً لظهور ذلك النسل الجديد» ؟! [1] .

لقد غاليت وأسرفت فى الإدعاء ياسيادة الدكتور. وزاد من خطر مغالاتك استنادك فيها إلى القرآن الأمين، والقرآن بريئ كل البراءة مما تنسب إليه. أما تخشى يادكتور أن ينطبق عليك قول الحق عز وجل : ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ المائدة [١٣].

إنهم كانوا يحرفون الألفاظ والمعانى، قاتلهم الله، وأنت تحرِّف المعانى، وفى كلا التحريفين جرأة مذمومة وخيمة العواقب. ونحن - والله - ما كنا نتوقع صدور هذا عنك مع مالك من جهاد فى سبيل الدعوة، فهل هذا من باب: «لكل جواد كبوة، ولكل حليم نبوة» أم من باب: «من مأمنه يؤتى الحذر» ؟

إن الأمل كبير فى أن يعلن الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين براءته من هذا «اللغو» وأن يسارع بإعدام كتابه (أبى آدم) لأن فى بقاء نسبته إليك فضائح؟ أم ترى أنك مجتهد، والمجتهد إذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر.

لا يادكتور، ليس هذا اجتهاداً، وإن كان الاجتهاد مع النص واقعا فى فهم النص إن كان احتمالى الدلالة أو احتمالى الثبوت.

---

(١) أبى آدم (٩٨).

لكن النص الذى حاولت الاجتهاد فيه نص قطعى الثبوت وقطعى الدلالة. يعنى إنه «فى حصانة من التأويل». فيجب التسليم بظاهر معانيه، وبخاصة أن هذه القضية التى تناولتها فى كتابك «أبى آدم» فوق أن نصوصها معصومة من التأويل، فإن لها محصنا ثانيا، وهو إجماع الأمة على التسليم بظواهر معانيها فهل تسمح لنفسك استمراء الاعتداء على حرمة النص المقدس، وإهدار إجماع الأمة – خاصتهم وعامتهم – القائم عليها.

إنه لمن أصعب الصعوبات علينا أن نراك تقف منفرداً عن الأمة فتشمت فيك اعداءك إياهم. وما أكثرهم؟ وما ألأمهم؟ وما أغدرهم؟ وما أخسهم ؟

جمود البشر ، ومرونة الإنسان:

وفى مبحث «الطريق إلى الجنة» أو «الفصل الثامن» حسب عنوانات المؤلف، نجد أنفسنا أمام استدلال آخر للمؤلف على أن البشر غير الإنسان هذا الاستدلال بدأه بقوله:

«ولأمر ما – أيضاً – وجدنا أن كلمة «البشر» جامدة لا تتصرف ، اللهم إلا بالتثنية والجمع فى قليل الاستعمال، على حين أن كلمة «الإنسان» متصرفة مرنة، وردت فى القرآن بصور مختلفة (؟!) وهى مفرد، جمعه اناسين، وأناسى، وقد استعمل مصغراً فقيل: انيسيان، والإنس اسم جماعة الناس والجمع إناس، والواحد إنسى» (١).

يريد المؤلف من مقابلة جمود البشر – عنده – ومرونة الإنسان أن الجمود يناسب حقارة البشر وانقراضهم ، ويجعلهم بمعزل من مفهوم معنى الإنسان، أما مرونة الإنسان فهى تناسب – عنده كذلك – رقى الإنسان ، ترشيحا لفصله عن البشر.

وقبل مناقشة هذا الفهم وبيان بطلانه وزيفه نلفت نظر القارئ إلى مغالطة جدلية وردت فى كلام المؤلف، ثم نتفرغ بعدها لما هو أعظم.

هذه المغالطة الجدلية تراها فى قول المؤلف بصدد حديثه عن كلمة إنسان أنها وردت فى القرآن بصور مختلفة، ثم عدَّ من تلك الصور المدعاة :

---

(١) أبى آدم (٩٩).

اناسين – أناسى – انيسيان – الإنس – الناس – إنسى ؟!

ووجه المغالطة – هنا – من ناحيتين:

الأولى : أن سرده هذه الكلمات بعد التقديم بقوله: «وردت فى القرآن بصور مختلفة» يوهم أن كل هذه الكلمات وردت فى القرآن وهذا غير صحيح، لأن إناسين، إنيسيان ، أناس – إنسى، لم ترد فى لغة القرآن قط، وإنما ورد بعضها فى اللغة قليلا.

لكن الدكتور – هنا – عمل بالمثل الشعبى القائل: كُبر الكوم ولا شماتة العدا» ؟

أما الناحية الثانية فإن الدكتور يتعامل مع الألفاظ لا مع معانى الألفاظ، ثم يحكم حكما جائرا بأن: الناس والإنس من فصيلة الإنسان، لا من فصيلة البشر، وهذه دعوى لن يستطيع أن يقيم عليها دليلا ولا شبه دليل. فهذه دعواه وحده، وفهمه وحده، له أن يؤمن به، أما أن يفرضه على غيره فلا.

إذا تقرر هذا فإن لنا مع سيادة الدكتور ، ومع القراء الكرام جولة نحسبها حاسمة.

فى بداية هذه الجولة ندعى دعوى (جدلاً) ونقيم عليها أصدق دليل، فتكون الدعوى واقعا لا مرية فيه .

أما الدعوى فنصوغها فى هذه العبارة:

إن البشر فى لغة القرآن أكثر مرونة من كلمة «الإنسان» وأن البشر فى اللغة بوجه عام أثبت أصلاً من الإنسان.

ولنبدأ بأصالة كلمة «بشر» فى اللغة ، وكونها أرسخ وجوداً فيها من كلمة الإنسان (١) .

فى اللغة نجد لكلمة «بشر» جذراً لغوياً تتفرع عنه كل صورها فى اللغة وفى القرآن:

---

(١) لن نشغل القراء ببحث أكاديمى لغوى بين الكلمتين وسنكتفى بمقارنة سريعة بينهما خشية التطويل .

أعنى أن لها مادة مكونة من ثلاثة أصول، هى: الباء،والشين، والراء هكذا: (ب . ش . ر) أى : بَشَرَ على وزن فَعَلَ. بالفاء والعين المفتوحتين، وكثيراً ما تُضَعَّفُ العين فيقال: بشَّر، على وزن «فعَّل» بتشديد العين وهى كثيرة التصرف فى اللغة من حيث البناء الصرفى، وبخاصة ما كان على وزن «فعَّل» بتشديد العين:

فيأتى منها الماضى: بشَّر، والمضارع: يُبشِّر، والأمر: بَشِّرْ، واسم الفاعل: مُبَشِّر، واسم المفعول: مُبَشَّر، والصفة المشبهة باسم الفاعل: بشير، والاسم: بُشرى – بُشراً – البشارة – التبشير – البشر. المبالغة فى اسم الفاعل بشار – مبَشِّر .

وكل هذه الصيغ صالحة للتثنية والجمع.

ومن يَعُدْ إلى معاجم اللغة يرعجبا من الصياغات المشتقة من مادة (ب – ش – ر) .

هذا من حيث الاشتقاق الصرفى. أما من حيث المعانى فإن هذه المادة تدور صياغاتها كلها حول المعانى المفرحة المبهجة، سواء فى ذلك الاستعمال اللغوى خارج دائرة القرآن، وما ورد منها فى النظم القرآنى المعجز، ولا نريد أن نطيل بذكر أمثلة من الاستعمال اللغوى العام، حيث يكفينا ما سنذكره من أمثلة الكتاب العزيز.

أما كلمة إنسان فليس لها جذر لغوى، لا مصدر، ولا فِعْل والدكتور شاهين يعرف ذلك جيداً؛ لأنه عالم لغوى كبير. يؤكد ذلك أن معاجم اللغة تكشف لمن يطلع عليها صحة ما نقول فأعلام اللغويين مختلفون اختلافا كبيراً وواسعا حول الأصل الذى ترجع إليه هذه الكلمة، بل ويختلفون حول صيغتها الأصلية، وحول أصل معناها الذى أُخذت هى منه.

فهى فى اللغة ليست لها «هوية» متفق عليها بين كبار علماء اللغة ، كالزجاج ، والجوهرى ، والأزهرى ، وسيبويه ، وابن منظور ، والفيروزآبادى ، والزبيدى، وغيرهم ، وغيرهم .

مرونة «بشر» فى القرآن :

وهاك أمثلة على مرونة كلمة بشر فى القرآن، نسوقها ليطمئن القارئ إلى صحة ما قلنا:

● سورة الحجر: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِن الْقَانِطِينَ ﴾ وقد ورد من المادة - هنا : الفعل الماضى.

● وفى السورة نفسها [٥٣] : ﴿ قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ وقد ورد منها الفعل المضارع.

● وفى سورة يونس [٢] : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقد ورد فيها فعل الأمر.

● وفى سورة النحل [٥٨] : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وقد ورد الفعل الماضى مبنيا للمجهول .

■ وفى سورة آل عمران [٧٩] : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وقد ورد فيها « بشر » اسما عاماً .

وفى سورة البقرة [٩٧] : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقد ورد فيها « بُشْرى » اسما على وزن فُعْلى. وتكررت فى القرآن معرَّفة ومنكرة ست عشرة مرة .

● وفى الأعراف [١٨٨] : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .. ﴾ وقد ورد فيها صفة مشبهة باسم الفاعل. وقد تكرر فى القرآن تسع مرات .

● وفى سورة الإسراء [١٠٥] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد ورد اسم فاعل من الفعل الرباعى. وقد تكرر فى القرآن مفرداً وجمعا مذكراً ومؤنثا إحدى عشرة مرة هذه أمثلة، كل مثال منها لنوع من الأنواع حسب البناء الصرفى.

أما جملة ما ورد فى لغة القرآن من مادة (ب - ش - ر) فقد بلغ تسعا وعشرين ومائه مرة، موزعة على الأسماء والأفعال والصفات، جامعة بين التذكير والتأنيث والمفرد والمثنى والجمع.

ومن حيث المعنى لم ترد هذه المادة فى النظم القرآنى إلا فى مقام الابهاج والسرور، اللهم إلا مواضع لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة استعملها القرآن فى التبكيت على سبيل الاستعارة التهكمية .

كقوله تعالى فى سورة التوبة [٣٤] : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

لأن البشارة لا تكون إلا فى الخير، وورودها فى الشر مجاز مراد منه التبكيت .

جمود الإنسان :

أما الإنسان فى اللغة، وفى القرآن ، فلم يرد فيهما له تصرف ولا مرونة .

ففى اللغة له حالتان، هما التنكير، والتعريف : إنسان – الإنسان . فلم يأتى له فعل ولا اسم فعل، ولا اسم مفعول ، ولا صفة مشبهة، ولا صيغ مبالغة . فهو من حيث اللفظ سواء كان معرَّفاً أو منكرّاً ملازم لهذه الحالة، وهى الإفراد، وقد يطلق ويراد منه الجنس .

أما مرات وروده فى القرآن فلم تزد على خمس وثلاثين مرة . أى بنسبة ١ – ٥ تقريبا مقارنا بورود مادة « ب - ش - ر » فى القرآن .

ومن حيث المعنى فقد ورد فى القرآن فى مواضع المؤاخذة والذم إلا ما ندر كان وروده فى القرآن « محايد » أى لا يمدح ولا يذم ، وبقية المواضع كلها واردة فى مقام المؤاخذة والذم .

وقبل أن نمثل لهذا نسأل سؤالاً ونجيب عليه : أما السؤال فهو :

لماذا هرب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين من المقارنة بين مادة (ب – ش – ر) وكلمة إنسان وجنح إلى المقارنة بين كلمة « بشر » مفصولة عن جذرها اللغوى، وكلمة « إنسان » ما الذى حمله على هذا الهروب ياترى ؟

الجواب :

إنما هرب الدكتور؛ لأنه لو سار فى المقارنة بين البشر والإنسان على المنهج الذى سرنا عليه لتفوق البشر على الإنسان، وهذا ما لم يؤهل له الدكتور نفسه

من قبل أن يسطر قلمه أول كلمة، في هذا الكتاب « أبى آدم » فالفكرة التى سيطرت على كل وجدانه هى: دونية البشر وهمجيته وغشمه وانقراضه وحرمانه من أدْنى فضل.

ثم وراثة « الإنسان » الأرض من بعده ورقيه « الملائكى » وصعوده إلى منزلة الخلافة عن الله، وأهليته للخطاب الأهلى، وما يترتب عليه من « مناقب » تبدأ بـ « التكليف » وتنتهى بالخلود فى الجنة إلا من ارتكس من « الإنسان » وهوى إلى حضيض « البشرية » المنحطة ؟!

« ثم رددناه أسفل سافلين » .

فكيف ينتهج – إذا – فى المقارنة منهجا يعلو فيه البشر المنحط على الإنسان « المختار » عنده ؟

إن الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين اختط لنفسه أعقم منهج من مناهج البحث والاستدلال. وهو التشبع بفكرة ، ثم التشبع التحكمى لها، واقتناص الأدلة عليها بأى سبيل، ضاربا عرض الحائط بدلالات الألفاظ والتراكيب الواضحة، ثم تعامله مع « مجرد الألفاظ » دون معانى وحقائق الألفاظ .

وتعامله مع مجرد الألفاظ أملى عليه أن البشر غير الإنسان . لماذا لأن « البشر » مكون من الباء والشين والراء، و « إنسان » مكون من الهمزة والنون والسين والألف والنون .

ولو كان قد تعامل مع معانى وحقائق الألفاظ لقضى بأن البشر هو الإنسان، وأن الإنسان هو البشر. وهذه إحدى آفات عمله فى هذا الكتاب « أبى آدم ».

أمثلة الإنسان من استعمالات القرآن:

- ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم [٣٤].
- ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ النحل [٤].
- ﴿ وكَانَ الإِنسَانُ عَجولاً ﴾ الإسراء [١١].
- ﴿ وكَانَ الإِنسَانَ كَفُوراً ﴾ الإسراء [٦٧].
- ﴿ وكَانَ الإِنسَان قَتُوراً ﴾ الإسراء [١٠٠].

● ﴿ وَكَانَ الإنسَانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ الكهف [٥٤] .
● ﴿ وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ النساء [٢٨] .
● ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ من عَجَلٍ ﴾ الأنبياء [٣٧] .
● ﴿ إنَّ الإنسَانَ لكَفُورٌ ﴾ الحج [٦٦] .
● ﴿ وَحَملها الإنسانُ إنَّهُ كَاَن ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ الأحزاب [٧٢] .
● ﴿ لاَ يَسأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الخَيْرِ، وإن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ فصلت [٤٩] .
● ﴿ إنَّ الإنسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ، إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ المعارج [١٩ – ٢١] .
● ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أكْفَرَهُ ﴾ عبس [١٧] .
● ﴿ كلاَّ إنَّ الإنسَان ليَطْغى * أن رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ العلق [٦ – ٧] .
● ﴿ يا أيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ الانفطار [٦] .
● ﴿ إنَّ الإنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ العصر [٢] .

انظر إلى حديث القرآن فى هذه المواضع – وغيرها كثير – عن الإنسان، تر أن القرآن ما وصفه إلا بالأوصاف القادحة، أما البشر فلم يوصف فى القرآن بهذا القوادح أبداً .

ومع هذا يصر الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين على انحطاط « البشر » وملآئكية الإنسان .

ونحن نعلم – يقينا : أن الحديث عن الإنسان هنا هو حديث – بلا ريب – عن البشر، وأن الحديث عن البشر فى القرآن حديث – بلا ريب – عن الإنسان ولكننا تعاملنا معهما باعتبار الألفاظ لا حقائق الألفاظ ومعانيها فى مواجهة المؤلف، وجريا على منهجه فى البحث والاستدلال ، لأن فى هذا إلزاماً له بالحق والصواب وإقامة الحجة عليه .

* * *

البرهان اللغوى

هذا العنوان من توابع الفصل «الثامن» الذى دعاه (الطريق إلى الجنة) ومراده من البرهان اللغوى – هنا – ما رآه من وجهة نظره دليلاً على صحة دعواه من جهة اللغة. وقد جمع فيه بين جديد لم يقله من قبل، وبين قديم كرره. وفى مواجهتنا لمدعياته قد ننقل بعض كلامه حرفياً، ونصوغ مراده من بعضٍ آخر فى عبارة وجيزة دفعاً للتكرار والتطويل.

وأول ما يلفت النظر من كلامه هنا هو ما قاله فى قوله تعالى: ﴿ .. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ﴾ هذا ما ذكر من الآية، ولم يذكر عَجُزَها، وهو «فقعُوا لَهُ ساجِدِينَ» وكان جُلَّ همه – هنا – الوقوف أمام أداة الشرط «إذا» من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ..﴾ لإن معناها فى اللغة أنها ظرف لما يستقبل من الزمان.

وبعد أن أشار المؤلف إلى هذا المعنى، وأن الزمن المستقبل بعد «إذا» قد يكون قصيراً بمقدار لحظة. وقد يكون أمداً طويلاً يقدر بملايين السنين، أو ما لا يعلمه إلا علام الغيوب. وهذا حق وصواب لا ينازع فيه المؤلف.

ولكن الذى لا يجاريه عليه أحد قط هو تحريف المعنى لما يوافق منهجه فى الاستدلال قسراً على فكرته «الواهمة» ومحاولة تأييدها بالآيات المحكمة من كتاب الله العزيز، عن طريق التأويل التعسفى، الذى لم يقل به – هنا – أحد من علماء الأمة قاطبة.

فقد قطع اتصال حديث القرآن المبين عن آدم الذى تعرفه الأمة بدءاً من رسولها الكريم، وإلى هذه اللحظة التى أُسَطِّرُ فيها هذه الكلمات، وإلى اللحظة التى تقرأها فيها أنت الآن؟

فإذا استحضرنا أمامنا – الآن – الآية التى قبل هذه الآية، ثم ذكرنا بعدها هذه الآية اتضح لنا كيف قطع المؤلف ما أمر الله به أن يوصل. وخرج عن المألوف لدى الأمة فى فَهْم كتاب ربها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةُ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

لقد مضى على اكتمال نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً قرأه المسلمون وحفظوه ودرسوه ووقفوا على معانيه المحكمة والمحتملة، وهم يعتقدون اعتقاداً جازما مجمعاً عليه بينهم أن هاتين الآيتين تتحدثان عن مخلوق واحد لله عز وجل هو آدم عليه السلام، أبو البشر، أبو الإنسان، أبو الناس، أبو الإنس.

وهم مجمعون إجماعاً راسخاً بأن هذا المخلوق هو أول مخلوق بشرى إنسانى، إنسى، ناسى. وهو الذى إسجد الله له الملائكة وكان إمامهم فى هذا الاعتقاد خاتم النبيين محمد ﷺ. وعلى هذا مضت الأجيال جيلاً إثر جيل، وقبيلاً إثر قبيل لم يشذ منهم أحد:

اللهم إلا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، الذى عهده الناس من قبل من أعلام الدعاة المقتدين المتبعين لسلف الأمة الصالح، غير المبتدعين.

لقد خرّق هذا الإجماع الرائع، وذهب إلى أن الآية الأولى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ تتحدث عن «مخلوق» ليس هو آدم الذى أسجد الله له الملائكة. وأن هذا المخلوق المجهول انجب مخاليق لا حصر لهم، منحطين، همجاً، الحيوانات العجموات أرقى منهم، لأن لها سمعاً وأبصاراً، أما ذلك المخلوق المجهول والمخاليق الغشم الذين أنجبهم، فلم يكن لهم سمع ولا بصر ولا عقل. وأنهم انقرضوا من الوجود تماماً. ولم يبق منهم (حس ولا بس) ولا أثر.

أما الآية الثانية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فهى تتحدث عن مخلوق آخر مغاير تماماً للمخلوق الأول؟!

وليس لدى الدكتور وحى غير الوحى الذى أنزله الله على محمد ﷺ، ولا سمع من فم رسوله الكريم حديثاً صحيح الإسناد سليم المتن يخالف ما عليه الأمة.

فمن أين أطلع على هذا الغيب المذهل يا ترى؟ ففاجأ الأمة بما ليس للأمة به علم؟

الجواب: إنه «إذا».

وتسأل: كيف أنبأته «إذا» بهذا «الكم الهائل المذهل من المعلومات»؟

والجواب: تشبث المؤلف بالمعنى اللغوى لـ«إذا» الذى تقدم، وهو أنها ظرف لما يستقبل من الزمان، وهى عند نحاة البصرة لا تدخل إلا على الافعال؟ أو بمعنى أدق، مختصة بالدخول على الجمل الفعلية، وإذا وقع بعد اسم أو جملة اسمية قدَّر البصريون فعلاً محذوفاً، وقالوا هو الواقع بعدها، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، قدَّروا التركيب هكذا: إذا انفطرت السماء انفطرت. ويكون الفعل الثانى (المذكور) توكيداً تفسيراً للمحذوف، وهم – أعنى نحاة البصرة – وغيرهم مجمعون على أن الفعل الواقع بعد «إذا» يحصل معناه فى الزمن المستقبل.

تشيث الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين بهذا المعنى فقال: وهى آية مصدرة بأداة ظرفية زمانية هى «إذا» وهى ظرف لما يستقبل من الزمان. ويمكن أن يكون هذا الزمان لحظة، كما يمكن أن يكون دهراً طويلاً..ونحسب – أى نظن – أن استخدام «إذا» فى هذا السياق، لا يبعد عن أن يراد به ملايين السنين» [(١)].

ويقول: تأتى «إذا» فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي..﴾ ظرفاً زمنياً، تعبيراً عن ارادة أزلية، تمضى فى تحقيقها عبر ملايين السنين، تسوى ذلك المخلوق، وهو جنس البشر، ثم تزوده بنفخة الله الروحية، ليكون عندئذ الإنسان، الذى تسجد له الملائكة [(٢)].

هذا هو كلامه بالحرف، أو فقرات من كلامه نقلناها بكل أمانة ليعرف القراء طبيعة المنهج الذى يسلكه المؤلف فى الاستدلال على صحة دعواه.

وهذا عنده صورة من صور «البرهان اللغوى» وسيأتى لها نظائر.

---

(١) أبى آدم (١٠٤).

(٢) أبى آدم (١٠٥).

إذن المؤلف – هنا – يحتكم إلى دلالات اللغة فى أدواتها. بيد أن فهمه هذا أوهى من بيت العنكبوت، وإن بيت العنكبوت لأوهن البيوت، فما بالك بما هو أوهى منه؟

بيد أن الدكتور – فوق ما تقدم – يأخذ من دلالات اللغة ما يوافق غرضه، ويُعرض عما يُبطل دعواه.

ففى الآية نفسها: هدر دلالة الفاء الداخلة على «إذا» مباشرة بلا فاصل، هكذا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ لأن لهذه «الفاء» معنى لغوياً – كذلك. الدكتور من أعلم الناس به، وقد أشار إليه مرات فى غير هذا الموضع.

ومعنى «الفاء العاطفة» الذى يدركه، وقد أغمض عينيه عنه، هو ذو شقين:

(أ) إنها تفيد ترتيب حدوث ما بعدها على ما قبلها. وما قبلها هو «خالق «بشراً» وما بعدها هو تسوية ذلك البشر».

(ب) فورية حدوث ما بعدها عقب حدوث ما قبلها بلا فاصل زمنى يذكر. كما إذا قلت: توضأت فصليت، تريد أن صلاتك حدثت بعد فراغك من الوضوء مباشرة بلا فاصل زمنى يذكر.

وهنا نجد سيادة الدكتور يهرب مرة أخرى من ملاحظة هذا المعنى، وهو معنى مكين، والمؤلف به جد عليم.

وسبب هذا الهروب أنه لو كان قد أظهر لقرائه ملاحظته لوقف فى مكانه وقفة تهدم ما تقدم من الانتصار لفكرته وتسد عليه ما تأخر.

لأن معنى الفاء هنا هو تقرير أن تسوية «بشراً» وقعت مباشرة بعد خلقه بلا فاصل زمنى يذكر. ويترتب على هذا بدلالة «اللزوم اللغوى، أن الآيتين تتحدثان عن مخلوق واحد، هو آدم عليه السلام:

أبو البشر – أبو الإنسان – أبو الإنس – أبو الناس الذى أسجد الله له الملائكة.

وبهذا تنهار فكرة الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، وتصبح ملايين

السنين الفاصلة بين « البشر الهمج، والإنسان الراقى، وَهْماً من الأوهام. كما هى – حقاً وواقعاً – وَهْمٌ من الأوهام.

أو هى « القُبَّعة السوداء فى غرفة مظلمة، لا وجود لها » وهذا تمثيل منطقى بليغ فى تعريف المستحيل المعدوم.

* * *

سذاجة الأمة؟!:

بلغ الدكتور شاهين منتهى القسوة فى الحكم على الأمة، التى بعث الله فيها خاتم رسله، وزكاها فى محكم آياته فقال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفى مقدمة هذه الأمة – بعد رسولها الكريم – أصحابه الكرام البررة، الذين قال فيهم علاَّم الغيوب: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

هؤلاء الذين أثنى الله عليهم فى هاتين الآيتين من آل عمران والفتح، وفى غيرهما من آيات كتاب الله العزيز، فى مقدمة من قسا عليهم المؤلف فى الحكم وجار، ورماهم بالسذاجة والبله والبهلولية. درى الدكتور أو لم يدر؛ لأنه وهو يرسل هذه الأحكام – جزافاً – وبلا ضوابط أو معايير، ما كان يقيم وزنا لمفهوم اللفظ بل قصر ذهنه على « منطوق اللفظ. والإنسان قد يقع فى بحور من الإثم بإهماله مراعاة « مفهوم اللفظ » والدكتور على دراية بالمعانى التى تستفاد من دلالات الألفاظ والتراكيب سواء كانت تلك الدلالات قريبة أو بعيدة.

وننقل للقراء هذه الفقرة من كلامه بالألفاظ والتراكيب التى خطها هو بقلمه:

«ومعنى هذا أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ).

«ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد؟! فقد حدث ذلك في مرحلة «الخلق» الأولى، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما يتحرك سائر الكائنات من (حشرات)[1] وطير، وحيوان»[2]؟!

قف أمام قوله: «ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بعث الروح في الجسد»؟!

المؤلف يقصد النفخ في قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ هذا النفخ عند المؤلف نفخ من نوع خاص سيأتي ذكره بعد قليل أما عند الأمة - بدءاً من رسولها الكريم، وأصحابه البررة، والذين اتبعوهم باحسان، إلى يومنا هذا فإن المراد بنفخ روح من الله في ذلك البشر الأول (آدم) هو النفخ الذي صار به «الجماد» إنساناً ارجع إلى أحاديث رسول الله كلها فلا تجد فيها ما يخالف هذا الفهم، ثم إلى تفاسير علماء الأمة لكتاب الله العزيز، وكتب السيرة والتاريخ وكل مصادر المعرفة الإسلامية، فأنت غير واجد فيها ما يخالف هذا المعنى البدهي.

فإذا بحثت عن من وصفهم المؤلف بالسذاجة في عبارته المذكورة لم تبصر أمامك إلا أمة الإسلام لم يتخلف منها أحد. أفلست معي - إذن - بأن سيادة الدكتور قد وصف كل أفراد الأمة بالسذاجة والبله والبهلولية؟!

وهل هذا الاتهام الآثم عندك - أيها القارىء - هين أم عظيم؟ إن هذا التفسير للنفخ عند المؤلف تفسير بدعي شنيع، ولا نملك إلا أن نرده على القائل به مهما كان حظه من الثقافة والمعرفة. وإذا استقصينا استعمال القرآن لهذا النفخ وجدناه في كل مواضع وروده يحيل الجماد أو الأموات أحياء، إما ببعث الروح في الجسد لأول مرة. وإما لاعادة الحياة إليها بعد الموت، كما هو الشأن في البعث

---

(١) هي في الأصل (حشر) وكتبناها هكذا (حشرات) جرياً على العرف اللغوي السائد.
(٢) أبي آدم (١٠٥).

العام يوم القيامة. وليس فيه موضع واحد أريد منه المعنى البدعى الذى انفرد به المؤلف. ووصف مخالفيه فيه بالبله؟

ونسوق بعض الأمثلة:

- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١].
- ﴿ .. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

النفخ فى الآيتين ترتب عليه اعادة الحياة للموتى يوم القيامة فخرجوا من قبورهم يتوافدون على الله وهم قيام ينظرون.

- ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فى هذه الآية الحاكية لقول عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل، ترتب على النفخ فيها إحالة الشكل الطينى (الجمادى) الذى صنعه عيسى بيده طيراً حيًّا بإذن الله، بعد أن كان جماداً.

- هذا هو منهج القرآن فى النفخ الإلهى، أو النفخ الاعجازى الذى يؤيد الله به بعض رسله.

إن كل هذه «الموانع» الراسخة يحاول الدكتور شاهين إزالتها من طريقه المسدود، وتحطيمها بمعول التأويل الذى حمله فى يمناه منذ أول خطوة خطاها فى هذه الرحلة الحالكة الظلام.

معنى النفخ عنده:

بقى أن نعرف معنى النفخ عند الأستاذ الدكتور، ولكن قبل بيان معنى النفخ عنده، نذكر بمعنى التسوية التى سبقته فى الآية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ إنها عنده هى مهمة المشروع الإلهى لتهجين البشر عبر ملايين السنين – تحت المراقبة الإلهية الدقيقة – أمكن من خلالها نجاح ذلك المشروع المدهش فصار البشر إنسانا. ودخل بوابة الزمان بحضوره وحضارته هكذا قال؟!

هذا هو معنى التسوية. كرره فى كتابه «أبى آدم» مرات عديدات.

وقد شبه المؤلف هذه التسوية بالهندسة «المعمارية» هندسة البناء وتجميله.

ومن الطريف أن المؤلف يسمى التسوية الإلهية: الهندسة المادية الظاهرية، وقد استغرقت ملايين السنين؟!

أما النفخ – عنده – فهو كما يقول:

«ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهى المتمثلة فى تزويد المخلوق السوى بالملكات والقدرات العليا، التى جوهرها العقل ؟ والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء.

وبذلك اكتمل مشروع بناء الإنسان، فكان آدم هو أول (إنسان) وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته» (١).

يعنى: أن نفخ الروح فى الآية كان بشق السمع والبصر، وتركيب جهاز العقل فى الإنسان.

ومن أجل أن يصل الله إلى إمكان إضافة هذه «الأساسيات» إلى الإنسان استمر الله عز وجل ملايين السنين فى التمهيد إلى هذه الإضافات، حتى نجح مشروعه العتيق والحمد لله؟!.

ولا تعليق لنا بعد هذا إلا أن نذكر القراء الكرام بآية يصف الله بها نفسه:
﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

عودة إلى معانى الأدوات:

رأينا كيف حاول المؤلف الاستدلال على فكرته بالمعنى اللغوى المستفاد من أداة الشرط (إذا) وها هو ذا يعود فيستدل على صحة الزمن الخرافى، الذى استغرقه المشروع الإلهى (!) فى تهجين (بشراً) ليصبح (إنسان) وهو ملايين السنين كما تقدم مرات، ومرات والأداة الجديدة هى «ثم» هى شبيهة بـ«إذا» فى إفادتها فسحة أو مساحة من الزمن، بين ترتيب وقوع ما بعدها (المعطوف) على وقوع ما قبلها (المعطوف عليه).

---

(١) أبى آدم (١٠٥).

وهى (ثم) ونختار من أمثلتها التى استولدها المؤلف ما يؤيد به فكرته آيات سورة السجدة [٧ – ٩] وهى :

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَّهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ . . . ﴾ ونلاحظ أن المؤلف لم يذكر بقية الآية التاسعة، وهى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ وسنعرف لماذا لم يذكر هذه البقية .

ومعنى « ثم » فى اللغة : الترتيب والتراخى، يعنى أن ما بعدها (المعطوف) حدث بعد حدوث ما قبلها (المعطوف عليه)، وأن بين حدوث الثانى وحدوث الأول فجوة من الزمن طالت أو قصرت أو توسطت بين الطول والقصر .

يقول المؤلف وهو بعلق على هذه الآيات مُركِّزاً على معنى « ثم » التى وردت فى الآيات مرتين :

« والأداة « ثم » للترتيب والتراخى . وكأن استعمالها فى هذا السياق ترجمة لمفهوم الزمان المتطاول، الذى عبر عنه الظرف (إذا) » [1] .

ومن الطريف أن المؤلف لم يُدخلِ فى اعتباره إلا « ثم » الثانية وهى عنده تدل على تراخٍ زمنى مقداره ملايين السنين .

أما « ثم » الأولى فلم يلتفت إليها . وورود « ثم » هنا مرتين أوقعه بلا شك فى ربكة، هى السبب فى جعله يسرع بالخروج من الحديث عن آيات السجدة الثلاث . ومنشأ هذه الربكة تصوره فى أن النظم الحكيم وسَّط بين بدء خلق الإنسان وهو « بشراً » الوارد فى سورتى الحجر و(ص) وسَّط بين هذا البدء الخلقى الأول، وبين تسويته ونفخ الروح فيه جملة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ولو كان النظم ذكر هذه الجملة بعد ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ لما كان فى الآيات ما يعكر صفو المؤلف . لأن منهج المؤلف فى الاستدلال يقتضى أن

---

(١) أبى آدم (١٠٦) .

تكون الآية الثانية هى الثالثة، حتى يتسنى له القول بانتظام مراحل المشروع الإلهى فى الخطو البطىء جداً – ملايين السنين، مجموع المسافة الزمنية بين بداية المشروع بالبشر، ثم نهايته بالإنسان.

أما لماذا لم يذكر ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ.. ﴾ فلأن هذه الجملة تفيد أن البشر الذى خلقه الله لأول مرة، كان سميعاً بصيراً عاقلاً. وهذا ما ينفيه المؤلف طوال مدة المشروع وزمنه ملايين السنين.

هذا منهج فى البحث باطل ظاهر عوره، وإن حسنّه المؤلف ونمّقه وجمّله.

فليست المهارة والسلامة فى البحث هى القدرة على التأويل بل فى استساغة التأويل وسلامة المقدمات وصدق النتائج وهذا – بكل أسف – ما لا نجد له أثراً قط فى كتاب «أبى آدم» وللناس فى ما يعشقون مذاهب، كما قال شاعر حكيم.

آيات «المؤمنون»:

وعلى المنهج نفسه، الذى سلكه المؤلف فى تطويع معانى الآيات لخدمة فكرته، نراه يخضع أداة العطف «ثم» فى آيات سورة «المؤمنون» لما يؤيد دعواه. وآيات «المؤمنون» هى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ من سُلاَلَة من طين* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةَ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عظَاماً، فَكَسَوْنَا العظَامَ لَحْما، ثُمَّ أنْشَأنَاهُ خَلْقاً آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخَالقِينَ ﴾ [١٢ – ١٤].

كبوتان فاضحتان:

لا نريد أن نطيل الوقوف أمام تعقيب المؤلف على هذه الآيات، وكنا قد قدرنا الاكتفاء بمواجهتنا له فى تعقيبه على آيات «السجدة» الشبيهة بهذه الآيات. ولكن حبب إلينا ذكرها؛ لأنا رأيناه يكبو فى تعقيبه عليها كبوتين من المحال النهوض منهما، وإليك البيان: نظر المؤلف فى الآيات فوجد النظم القرآنى المعجز يستخدم فى عطف الجمل فى الآيات أداتى عطف:

(ثم - والفاء) :

استخدم «ثم» مرتين متواليتين فى عطف الجملتين الثانية، والثالثة. ثم استخدم العطف بالفاء فى الرابعة والخامسة والسادسة، أى عطف العلقة على المضغة، وعطف العظام على العلقة، وعطف كسوة العظام على العظام.

ثم عاد النظم الحكيم للعطف بـ«ثم» فى الجملة السابعة: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾.

قال المؤلف معقباً على تخالف العطف فى الآيات بين ثم والفاء ما يأتى:

«ولنتأمل استعمال «ثم» فى الآيات بجانب استعمال «الفاء» فبين (الخلق) من الطين، و(الجعْل) «نطفة فى قرار مكين» مسافة زمنية، لا يعلمها إلا الله، استغرقتها عمليات التسوية [1].

وهذا الجعل تعبير عن جانب استكمال «الخلق». ثم تكون النطفة علقة، ولعل تقدير ذلك تم فى زمان متطاول أيضاً» [2].

والذى نحب أن يشاركنا القارىء فى ملاحظته، أن المؤلف لما جعل العطف بـ«ثم» فى الجملة الثانية ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً .. ﴾ للدلالة على الزمن المتطاول (ملايين السنين) التى استغرقها المشروع الإلهى - البطىء - فى تحويل البشر إلى «الإنسان» اضطر أن يفسر معنى (ثم) بزمن متطاول كذلك بين تخليق النطفة علقة؟!

وهذه هى الكبوة الأولى، أو العثرة التى لا يمكن القيام منها؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه - هنا - وكذلك ما بعدهما - يصوران مرحلتين من مراحل تكوين الجنين فى رحم أمه، وبين صيرورة النطفة علقة يتم فى أربعين يوماً كما جاء فى الحديث الصحيح [3].

---

(١) القارىء يعلم أن المؤلف قدر هذه المسافة بملايين السنين. ثم ينفى علمها - هنا - عن كل أحد إلا الله، ولو كانت هناك فعلاً مرحلة فاصلة بين خلق البشر وخلق الإنسان لا يعلمها إلا الله. فمن أين عرف المؤلف أنها ملايين السنين؟

(٢) أبى آدم (١٠٦).

(٣) انظر لفظ الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم، فى أول باب «القدر».

ولو لم يحدد الحديث هذه المدة فإن الواقع والمشاهدة والعادة المتكررة تكذب هذه «المقولة» فمكث الجنين فى رحم أمه من ساعة «التلقيح» إلى ساعة الولادة تسعة أشهر أو بعدها أو قبلها بقليل. وليس هذا زمنا متطاولاً كما قال المؤلف فكيف يصح ما قاله سيادة الدكتور، أم أن الأمر كما قال الشاعر فى شأن كل من يستخف بعقول المخاطبين:

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول؟

الكبوة الثانية:

أما الجمل التى عطف النظم الحكيم بعضها على بعض بالفاء، فإن المؤلف مقر بأنها مراحل تطور التخليق الجنينى فى بطون الأمهات، وهذا حق، وكنا نتمنى أن يلتزم به، ولكن سرعان ما خرَّ من شاهق كما يقول المثل العربى القديم، لأنا رأيناه يقول فى معنى «ثم» فى الجملة الأخيرة من الآية: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ما يأتى:

«ويعود السياق بعد ذلك إلى استخدام (ثم) للتعبير عن طول الفترة الزمنية بين ما سبق، وما سوف يأتى بعد: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ..﴾ والمعنى التاريخى لإنشاء هذا الخلق، هو النقلة من البشر إلى الإنسان، وهو خلق آخر فعلاً[1]».

ولنا على هذا سؤال واحد، نوجهه لسيادة الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين:

السؤال: هل المشروع الإلهى فى تدجين البشر إلى إنسان تم قبل خلقنا نحن، الذى تحدثت عنه آيات «المؤمنون» أم سيتم بعد خلقنا؟ إن كان قد تم قبل خلقنا، فيلزمك القول بأن «ثم» الأخيرة فى آيات «المؤمنون» ليست قطعاً للدلالة على المشروع الإلهى البطيء (ملايين السنين)؟

وإن كان سيتم بعد خلقنا نحن، فقد انعكس الوضع قطعاً فصار الماضى مستقبلاً، والمستقبل ماضياً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟!.

---

(١) أبى آدم (١٠٦).

فماذا تقول يا سيادة الدكتور للخروج أو النهوض من هذه الكبوة ؟!.

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واهدنا إلى محاسن الأمور، لا يهدى إليها إلا أنت يا أرحم الراحمين.

معنى السلالة :

يكاد المفسرون يجمعون على أن معنى السلالة هى الخلاصة الخالية من كل ما يشينها، وأنها خلاصة كل شىء فيصح أن يراد بها الطين الصافى النقى أو الماء النقى، وروى عن ابن عباس أن السلالة - هنا - هى صفوة الماء.

كما يقول المفسرون واللغويون أنها سميت سلالة؛ لأنها تنسل من بين ما يكدر صفوها.

وعلى هذا فإن « سلالة » فى الآية يوصف بها الطين الذى خلق منه آدم عليه السلام، أو الماء (النطفة) الذى خُلق منه ذرية آدم عليه السلام.

أما المراد من « الإنسان » فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ ﴾ فللمفسرين فيه مذهبان :

● الأول : إنه آدم عليه السلام؛ لأن الله خلقه من طيب الطين الخالى من الكدر، والضمير فى « جعلناه » عائد عليه، أى على آدم عليه السلام بطريق الإستخدام والمراد بنوه.

● والمذهب الثانى : أنه بنو آدم؛ لأن أصل خلقهم هو الطين وأن الضمير على هذا الذى فى « جعلناه » عائد عليهم لا بطريق الاستخدام [١]

ولا يعرف علماء الأمة محتوى المشروع الإلهى الفاصل بين البشر والإنسان وكل الآيات التى تحدثت عن خلق آدم، أو البشر، أو الإنسان فإنها تتحدث عن مخلوق واحد كرَّمه الله، وأسجد الله له الملائكة، ولم يشذ عن هذا الفهم والاعتقاد أحد من سلف الأمة ولا من خلفها. إلا بدعة كتاب « أبى آدم ».

---

(١) انظر ، ان شئت - تفسير ابن عطية : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (١١ / ٢٣) وتفسير الكشاف (٣ / ٢٧).

إحالة مهمة:

على غرار ما تقدم من تشبث المؤلف بما يوافق أغراضه من معانى اللغة فى الآيات التى تتحدث عن خلق البشر، على غرار ما تقدم أخضع معنى « ثم » فى قوله تعالى فى سورة الأعراف، الآية [١١]:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمَ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ فقد وظف هو - لا القرآن - ثم الأولى الواقعة بين الخلق والتصوير للدلالة على عمر «المشروع العجوز» الذى عبر فيه البشر الهمجى طريقاً وعراً فى طريق وصوله إلى درجة (الإنسان الراقى)؟ ثم وظف هو- لا القرآن- التصوير لإفادة معنى التسوية، التى استغرقت ملايين السنين؟!

أما « ثم » الثانية ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ .. ﴾ فقد بحث لها عن مسوغ فقال انها تشير إلى فجوة زمنية قبلها وبعد التصوير، وهى مرحلة نفخ الروح؟ ومعنى الاضطراب أن الخلق والتصوير تمَّا قبل بعث الروح فى البشر الحيوانى؟ وهذا سائغ عند المؤلف لأن معنى نفخ الروح عنده، ليس هو النفخ الذى ترتبت عليه الحياة، بل هو شق السمع والأبصار، وتركيب الجهاز العقلى ليصير البشر إنساناً وقد عالجنا هذه المدعيات من قبل، ونكتفى - هنا - بمجرد رصدها (١).

استدراك غير مُجْدٍ:

فى مطلع هذه الدراسة، أو المواجهة، بأيهما شئت أن تسميها نظَّرْنا بين منهج المؤلف فى الانتصار لفكرته أو بدعته التى استسمن ورمها، وبين منهج المعتزلة فى المسائل الأصولية فى علم الكلام، أو الاعتقاد، فكلاهما (المؤلف والمعتزلة) يحتفظان بقدسية النصوص القرآنية، ما فى ذلك من أدنى شك لكنهما من حيث الاستدلال بهذه النصوص القرآنية، لهما مناهج غير مَرْضية:

فهم - جميعاً - إذا رأوا ظواهر العبارات تؤيد أراءهم أو مذاهبهم قبلوها وأمرُّوها على تلك الظواهر.

---

(١) انظر: أبى آدم (١٠٧).

وإذا رأوا بعض العبارات مانعة لما يقولون تجرأوا على تأويلها والانحراف بمعناها إلى الجهة التى تسمح ببقاء معتقداتهم وأفكارهم وهذا السلوك أوقعهم فى الحرج، وفى القول بالشىء وضده، أو الشىء ونقيضه.

ولا ريب أن سلوك هذا المنهج فى البحث والاستدلال يؤدى إلى نتائج منقودة أو منقوضة.

ومن هذا القبيل فى كتاب «أبى آدم» شىء كثير، قد أشرنا من قبل إلى بعض صوره.

أما هنا فنضيف إلى ما تقدم واقعة جديدة. لحظناها فى محاولته التغلب على عقبة تعترض طريقه فى قوله تعالى من سورة الانفطار آيات [٦ – ٨] وهى:

﴿ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾.

وتتمثل العقبة فى حرف الفاء العاطف للتسوية على الخلق «خلقك فسواك».

لأن مقتضى فكرة المؤلف أن تُعْطفَ التسوية على الخلق بـ«ثم» لأن العطف بالفاء يقتضى (لغوياً) الترتيب مع التعقيب، فتكون التسوية قد وقعت بعد الخلق مباشرة بلا فاصل زمنى يذكر، وبهذا لا يكون فى الوجود مشروع إلهى بطىء استغرق ملايين السنين بين خلق البشر، وخلق الإنسان؟

وهذا ما لم، وما لا يُسلم به المؤلف، وإلا فما كان لكتابه (أبى آدم) وجود، ولأحرقه بعد طبعه لئلا يطلع عليه أحد.

ولذلك صمم على السير فى الطُريق المسدود، وفكَّر، ثم فكَّر، كى يزيل هذه العقبة من طريقه. فماذا صنع يا ترى؟ والمعول ما يزال فى يمناه؟ اقرأ معى كلامه الآتى:

«وبرغم ذلك، قد يعبر النص القرآنى عما شأنه التراخى بالفاء؛ فهو - أى النص القرآنى، أو القرآن – يضمنها معنى (ثم) أو بتعبير أدق يوظفها فى موقع (ثم) كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ يَا أيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾.

« وقد يسوغ هذا التضمين، أن المخاطب، وهو الإنسان، لا يرى فى ذاته سوى مخلوق مكتمل: خلقا، وتسوية، وعدلاً؟ فهو يرى اندماج هذه المراحل فى ذاته، ولذلك لاق – أى ناسب – أن يضمن (الفاء) معنى (ثم) المتراخية » (١) .

وهذا استدراك من المؤلف لا يجديه فتيلا؛ لإن الاندماج الذى جعله داعياً بيانياً لاحلال الفاء محل « ثم » لو كان هو المراد لرب العزة من كلامه، لاكتفى بقوله « خلقك » بل إن المناسب لافراد هذه الثلاث: خلقك – سواك – عدلك – تعديد نعم الله على الإنسان وتكثيرها. والمقام – هنا – مقام امتنان وترقيق لمشاعر المخاطبين ومقتضاه – بلاغة وبياناً وإعجازاً – هو التعديد والتكثير، لا التقليل والادماج كما قال المؤلف.

إن تأثر المؤلف بمناهج الاعتزال، فى البحث والاستدلال، ظاهرة جدلية بحثية، لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها.

* * *

(١) أبى آدم (١٠٧).

برهان التكرار

من السمات البارزة في كتاب «أبى آدم» التكرار، أعنى تكرار المؤلف فى كلامه، فبعض الأفكار يبدىء ويعيد فيها كثيراً، ولولا هذا التكرار لجاء كتابه فى ثلث حجمه الذى ظهر فيه (١٨٦ صفحة) بخلاف الفهارس.

والموضوع الذى نعرض له هنا، والذى ذكره المؤلف بعنوان: «برهان التكرار» لا يكاد يخلو من قديم جدد ذكره، وكنا قد عرضنا له من قبل، فمعذرة للقراء إذا لاحظوا أننا نكرر بعض ما قلناه فيما سبق، وعذرنا أننا نواجه فكرة المؤلف حسب ترتيبه لمحاولات الاستدلال عليها من آيات الكتاب العزيز.

وخلاصة ما ذكره تحت هذا العنوان «برهان التكرار» أو الفصل التاسع كما دعاه:

أن القرآن أهمل البشر، واحتفل بالانسان. ولا بأس أن نذكر القراء مرة أخرى بأن المؤلف يتعامل مع الألفاظُ كأنها كائن حى، ولا يتعامل مع حقائق الألفاظ، ولو كان يتعامل مع حقائق الألفاظ لما توهم أن بين البشر والإنسان خصومة؛ لأن البشر والإنسان وإن اختلفا فى اللفظ فمعناهما واحد، يطلقان على أبينا آدم وعلى من تناسل منه. فالبشر = الإنسان، والإنسان = البشر. فهما مثل القمح والبُرّ، كلاهما اسمان لنوع واحد من الحبوب: هذا عند الناس جميعا، إلا مؤلف كتاب «أبى آدم» فالبشر ليس هو الإنسان، والإنسان ليس هو البشر. والقمح ليس هو البر، والبر ليس هو القمح .. الخ .. الخ

وعلى هذه التفرقة الوهمية بين كلمتى «البشر» و «الإنسان» راح المؤلف يستقرئُ حظ كل منهما فى القرآن. ولما كان المؤلف هو «دفاع الإنسان ومحاميه» فإن قلمه مع الإنسان، ومحاماته الحارة له. وإليك ما كتبه من فقرات هذا البحث بعد أن أظهر عداءه الدفين للبشر، وولاءه المكين للإنسان:

« ولقد نجد فى القرآن دليلا قاطعا على صحة هذا المذهب، حين نجده محتفيا بالإنسان، متابعا لوصف كل أحواله، فى ثلاثة، وثلاثين موضعا، على

حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد . وهو سلوك واضح الدلالة على صدق التفرقة بين المستويين .

« ولننظر الآن إلى نصوص القرآن الواردة بشأن الإنسان ، بحسب ورودها في ترتيب المصحف » [1].

هذا قوله ، ونقول : ليأذن لنا القارئ الكريم في ذكر الآيات التي ذكرها المؤلف دليلا على أن « الإنسان » أوْفر حظا في القرآن ، من أولئكم البشر المغضوب عليهم .

ونُذكِّرُ ، مرة أخرى ، أننا نجاري المؤلف جدلاً حسب منهجه ، ونحن مثل غيرنا من سلف الأمة وخلفها نعتقد اعتقاداً جازما أنه لا فرق في الحقيقة والواقع بين الإنسان والبشر ، وأن كل حديث في القرآن جرى بعد ذكر أحدهما إنما هو حديث عنهما معاً ، وعن الإنس ، وعن الناس ، وعن بني آدم ، وهذه كلها اطلاقات عامة ، يراد بها أبونا آدم ، ومن تناسل عنه من ذريته .

كما نُذكِّرُ ، بأننا بعد ذكر الآيات ، سنعقب على مقصد المؤلف منها بما يجعل استدلاله بها على مقصده سراباً خادعاً يحسبه الظمآن ماء ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً .

الآيات :

١ – ﴿ يُريدُ اللهُ أَن يُخفِّفَ عَنكُمْ ، وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعيفاً ﴾ [النساء : ٨].

٢ – ﴿ وَإِذا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبه أو قَاعداً أو قَائما ، فَلَّما كَشَفْنَا عَنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلَك زُيِّنَ لِلمُسْرِفِين مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [يونس :١٢].

٣ – ﴿ وَلئِن أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نزَعْنَاها مِنهُ إِنَّهُ لَيئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

٤ – ﴿ إِنَّ الشَّيْطانَ لِلإنسَان عَدوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥].

٥ – ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤].

(١) أبي آدم (١١٠) .

٦ - ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ فإِذَا هُو خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤] .

٧ - ﴿ وكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١] .

٨ - ﴿ وكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٦٧] .

٩ - ﴿ وإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ﴾ [الإسراء: ٨٣] .

١٠ - ﴿ وكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠] .

١١ ﴿ وكَانَ الإِنسَانُ أَكثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤] .

١٢ - ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] .

١٣ - ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٦] .

١٤ - ﴿ وكَانَ الشَّيطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٩] .

١٥ - ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

١٦ - ﴿ أَوَ لَم يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ فإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧] .

١٧ - ﴿ وإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنيباً إِلَيْه ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ قَبْلُ ، وَجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِه ﴾ [الزمر: ٨] .

١٨ - ﴿ فإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتنَةٌ ﴾ [الزمر: ٤٩] .

١٩ - ﴿ لاَ يَسْأَمُ الإِنسانُ مِن دُعَاءِ الخَيْرِ ، وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩] .

٢٠ - ﴿ وإِذَا أَنعمنَا عَلَى الإِنسانِ أَعَرَض وَنَأَى بجَانِبِه ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ فصلت [٥١] .

٢١ - ﴿ وَإِن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِم فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ الشورى [٤٨] .

٢٢ - ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف ١٥].

٢٣ - ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢١].

٢٤ - ﴿ بَل الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِه بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤].

٢٥ - ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦].

٢٦ - ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا اكْفَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧] .

٢٧ - ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غرَّكَ بربِّكَ الكَرِيمِ ﴾ [الإنفطار :٦].

٢٨ - ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾ [الإنشقاق :٦].

٢٩ - ﴿ لَقَدَ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

٣٠ - ﴿ لَقَد خَلَقْنَا الإِنسَان فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات .. ﴾ [التين :٤ - ٦].

٣١ - ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [اقرأ :٦ - ٧].

٣٢ - ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِربِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات :٦ - ٨].

٣٣ - ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر :٢].

تعقيب :

كان هدف المؤلف من سوق هذه الآيات ، أن يحمل الناس على الإقتناع بفكرته ، وأن يحدث إنقلاباً مدويا وتفسيراً هائلاً فى محيط العلم والثقافة ، على مستوى العالم كله وليس العالم الإسلامى وحده.

لأن القضية التى تعرض لها ليست خاصة بقوم دون آخرين ، بل هى قضية علمية عامة ، وهى وإن كانت واحدة من مسائل الغيب ، فإن العلم تعرض لها ، باعتبار أنها من صميم ما يسمى بـ« علم الإنثروبولجيا » وهى الدراسات التى تتعلق بتاريخ الإنسان وخصائصه الذاتية.

وعلى كثرة ما أجرى حولها من محاولات ، والتى كان من أشهرها « نظرية دارون » فإن أحداً لم يقل بما قال به الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين . ودعواه وإن كانت تشبه دعوى دارون من وجوه فإنها تباينها من وجوه أخرى ، فعند دارون تعدد المراحل والأنواع التى تقدمت على ظهور الإنسان ، وكانت آخرها مرحلة أو نوع « القردة العليا » أما عند الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ، فليس قبل ظهور الإنسان إلا مرحلة واحدة ممتدة ، أوهى « المشروع الإلهى البطىء الذى ذكره مرات عديدة ، هو المخلوق البشرى .

وقد لحظ الدكتور نفسه هذا حين رفض تعدد أنواع الخلق قبل آدم الإنسان . وقال بـ « وحدة الخلق » هذا أحد الفروق بين نظرية دارون وفكرة الدكتور شاهين .

بقى فرق آخر « جوهرى » يتعلق بمصدر « الخلق » فعند دارون أن مصدر الخلق أو الخالق هو « الطبيعة » لإنها كما يقول العلمانيون : مادة، والمادة سابقة فى الوجود على « الفكرة » لأن الفكر كله انعكاس للمادة[1] ؟ .

أما الأستاذ الدكتور شاهين فإن الخالق هو الله عز وجل . ولهذا فإن إنكار نظرية دارون يشمل الناحيتين التصور والاعتقاد فى مجال الإيمان .

أما فكرة « شاهين » فإن الإيمان الصحيح ينكرها من ناحية التصور فحسب، أو بعبارة أدق ، ينكرها من ناحية « التكييف العلمى » لها .

ونعود إلى التعقيب المباشر على « برهان التكرار » فخلاصة ما أراده منه الدكتور أن كثرة ذكر الإنسان فى القرآن [٣٣ مرة] فى كل مرة يصفه القرآن بوصف . أما البشر – كما يقول المؤلف ، فقد ذكر فى القرآن ثلاثين مرة غير موصوف بشئ مما وصف به القرآن الإنسان .

إذن فإن تفوق « الإنسان » على « البشر » بالذكر فى القرآن يجب أن يسقط من حسابات الدكتور « شاهين » لأن الفرق بين (الذِّكْرَيْن) ثلاث مرات ، وهى لا تعتبر فرقاً ملحوظاً ينشأ عنه تفاضل بين النوعين .

---

(١) رددنا على هذه الشبهات بشكل واسع فى كتابنا : « الإسلام فى مواجهة الأيدولوجيات المعاصرة » . مكتبة وهبة.

وكثرة « التكرار » نفسه، ليست من معايير التفاضل على أى نحو وردت . فإنا نجد القرآن الكريم ذكر « الشيطان » مفرداً وجمعاً أكثر من ذكر البشر وذكر الإنسان . فهل نقول بناء على هذه الأكثرية أن الشيطان أفضل عند الله من البشر ومن الإنسان على فرض التسليم من جانبنا جدلاً بالفرق بين البشر وإنسان الدكتور « شاهين» ؟!

هذه واحدة، والثانية، إذا نظرنا لحرص القرآن على وصف الإنسان بوصف، أو وصفين، أو أكثر فى كل مرة ورد ذكره فيها فإن القرآن – مع هذه الكثرة – وهو ما يركز عليه سيادة الدكتور لا يُعْلِي من شأن الإنسان، لإنَّا نقول له : إن كثرة هذه الأوصاف تحط من منزلة« الإنسان » وترفع من منزلة « البشر » على عكس ما يحاول السيد الدكتور إثباته . بيان ذلك :

أن القرآن ذكر « البشر » ثلاثين مرة – حسبما ذكر – بـ « أقل ثلاث مرات من ذكر الإنسان » لكن خلو القرآن من وصف البشر على حد تعبيره هو شرف للبشر، والسبب العظيم الذى نركز عليه – هنا – فى مواجهة دعوى الدكتور هو أن الأوصاف التى حرص القرآن الأمين على وصف الإنسان بها، أوصاف قادحة لا مادحة، ذامة لا حامدة . أما ذكر القرآن للبشر فلم نجد فيه وصفا لهم لا بقدح ولا بذم ، بل هو ذكر « محايد » يمكن أن نلمح فيه « البراءة الأصلية » كما يقول الفقهاء .

أما الثلاثة والثلاثون مرة التى ذكر فيها القرآن الإنسان فإن مواضع جد نادرة وردت « محايدة » لا ممدوحة ، ولا مذمومة وهى الآيات المشارإلى سورها وأرقامها الآتية :

- يوسف [٥] .
- الفرقان [٤٩] .
- القيامة [١٤] .
- الإنشقاق [٦] .
- البلد [٤] .

فالأصل فى ذكر الإنسان فى القرآن هو مقامات المؤاخذة والذم مع التفاوت فى بلوغ الوصف فى الشدة والخفة .

ففى بعض المواضع تكرر الأوصاف القادحة ، وفى بعضها يضفى الوصف ، وإن لم يتكرر ، ظلالاً كثيفة من الذراية بالإنسان فهو :

ضعيف - مسرف - لا وفاء له - جاحد - كفور - ظلوم - كفار، خصيم ظاهر - عجول - معرض عن الله - يئوس - قنوط - قتور - سافل - كثير الجدل - يجعل لله أنداداً - طمَّاع - هلوع - جزوع - مدعو عليه بالهلاك « قتل الإنسان » - شديد الكفر « ما أكفره » مغرور - طاغ - في خسر.

ولم نلمح في المواضع الثلاثة والثلاثين مدحاً للإنسان إلا في موضع واحد هو :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهو وصف لبعض من الإنسان . وليس للإنسان بوجه عام .

أما قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فلا فضل فيه للإنسان ، لأن الله هو الذى أنعم عليه فسواه وأحسن خلقه .

هذه الآيات كانت كفيلة أن تعود بالدكتور شاهين « القهقرى » لو كان قد قدَّر دلالتها حق قدرها . فهو لم يعثر على وصف واحد في القرآن يشين سيرة « البشر » مع وجوده هذه الأوصاف المحبطة في جانب الإنسان ولأمرٍ ما أصر سيادته على تفضيل كلمة « الإنسان » على كلمة « البشر » لأنه - كما تقدم - يتعامل مع مجرد الألفاظ لا مع حقائقها ومدلولاتها وما ترمز إليه من ظلال خارج نطاق الذهن .

وإلاَّ فإننا - بعد هذا الشوط « الجدلي » معك نقر بكل وضوح أن هذه الأوصاف لا تختص بالإنسان الذى وُصف بها في القرآن بل هي أوصاف للبشر، كما أنها أوصاف للإنسان، فهما بمعنى واحد، ومن المسلمات العقلية أن إختلاف التسمية ، لا يدل قط على اختلاف المسمى إذا كان الشئ الواحد مسمى بعدة أسماء، ونذكرك بأسماء الله الحسنى [٩٩] أسما. أليست جميعها تدل على مسمى واحد ، هو الله الذى لا إله غيره وليس له شريك في الملك ؟

دعوى بغير دليل :

بعد أن ذكر المؤلف الآيات التى وردت في القرآن وورد فيها لفظ الإنسان موصوفاً بأوصاف القدح إلا ما ندر، وكان قد حصرها في ثلاث وثلاثين آية، وكنا قد أثبتناها كلها كما وردت في كتابه « أبى آدم » وفرغنا من التعقيب عليها بما

يخرجها عما أراده المؤلف منها من الاستدلال بها على صحة فكرته ، التى بلغ تعصبه لها النهاية ، بعد ذلك كله عاد فى ختام مبحثه الذى عنون لها بـ « برهان التكرار » عاد إلى التكرار مرة أخرى ، مشيراً إلى إحصائية أوسع مما ذكره فى بداية البحث .

لأنه فى ختام البحث يسطو على كل إشارة وردت فى القرآن فيها حديث عن بنى آدم ، بأى لفظ كان فيجعل المقصود منها « الإنسان » لا « البشر » .

فالناس ، والإنس ، وبنو آدم ، والبرية . هذه كلها المقصود منها « الإنسان » دون « البشر » ؟ .

والأعجب من ذلك ، أن المؤلف يصر على أن الإشارات الأعم فى معناها مما يدل على الفصيلة الآدمية أن المقصود منها الإنسان ، لا البشر ، ولا غير البشر من المخلوقات التى لا يعلمها إلا الله .

فآية سورة « الأعلى » وهى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ المقصود - عنده - منها الإنسان ، مع أنها تشمل كل مخلوقات الله إنسا وملائكة وجنا وغيرهم .

وكذلك آية « السجدة » وهى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. ﴾ فهذا - كذلك المقصود به - عنده - الإنسان وتراه - هنا - يقول ، وهو يستثمر الأحصائيات لصالحه .

« على حين أن القرآن كله لم يذكر البشر بشئ من هذا أو غيره ، مع أن كلمة البشر وردت فى القرآن مفردة ثلاثين مرة ، ثم ذكرت مثناة مرة واحدة [1] .

أما الإنسان فقد ورد لفظه فى القرآن ثنتين وستين مرة [2] بالإضافة إلى ورود لفظة : (الإنس) « سبع عشرة مرة ، وجاءت لفظة « أناس » سبع مرات ، ولفظة « الناس » مائتين وأربعا وثلاثين مرة ، ولفظة « أناس » مرة واحدة فمجموع ورود لفظ « الإنسان » وأمثاله ثلاثمائة وعشرين مرة .

« فإذا علمنا أن الناس خوطبوا فى القرآن بلقب « بنى آدم ، وأن ذلك قد

---

(١) يشير إلى قول آل فرعون عن موسى وهارون : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٢) أى وروداً عاماً . بينما الثلاثة والثلاثون المذكورة هنا . كان الإنسان موصوفاً فيها بما وضحناه من قبل .

جاء سبع مرات فى القرآن ، إذا علمنا ذلك كله تأكد لدينا أن « الإنسان » هو المرحلة الأخيرة والحاسمة فى تاريخ الحياة على الأرض ، وأن وجود « البشر » إنما كان بمثابة المراحل « التحضيرية » لذلكم المخلوق ، الذى قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية ، وتحصيل خواص الجمال والكمال » (١) .

القراء يعلمون أنا رددنا على هذه الشبهات من قبل ، لأن المؤلف كثير التكرار لأفكاره . وخلاصة ما نقوله – هنا – مضافاً إلى ما تقدم :

إن المؤلف لا يملك دليلاً واحداً على أن ما ذُكر فى القرآن بغير لفظ البشر ، وبغير لفظ الإنسان ، مقصورة دلالته على « الإنسان » دون « البشر » والأمر عند المؤلف قائم على التحكم المحض ، وأننا لنضن بالأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أن يكون منهج البحث العلمى عنده موسوماً بهذه الآفات ، التى لا تنتج إلا نتائج عقيمة . وإنه لمن أحذق الناس بأصول البحث العلمى ، فكيف أوصله التعصب لفكرته إلى هذا المستوى من فرض الرأى بقوة العضلات ؟

إن التجرد التام من حب الانتصار للنفس بأى وسيلة واستبعاد كل المؤثرات الذاتية عن مجال البحث العلمى أول خطوة صائبة يخطوها الدارسون والباحثون عن الحقيقة .

ثم تأتى بعد ذلك موضوعية النظر فى المادة المدروسة والإنقياد الكامل لما تكشف عنه الأدلة المرشحة للدرس ونأسف مئات المرات ، ونحن نقول للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين :

إن اللغة والقرآن والواقع لا يقف واحد منها معك :

لا فى أصل الفكرة (البشر غير الإنسان) ، ولا فى ما رتبته عليها من تصورات . وإذا رأيت أنت أن ما ذكرته من دلالات اللغة ، والتكرار تؤيد كل ما قلت ، فإن غيرك – الأمة كلها – لا ترى فى منهجك إلا الخيال الجامح والتأويل المرفوض . والتحكم الموسوم بكل شدة وعنف وما نزال نحن نضن بلك عن هذه المآخذ ، ونطالبك بالإحتفاظ بمكانك ومكانتك فى عرش الدعوة إلى الله ببراهين الدعوة، التى لا تخيب .

* * *

---

(١) أبى آدم (١١٣) .

آدم أبو الإنسان

أخرج المؤلف كتابه « أبى آدم » فى بابين : الأول دعاه « القصة بين العقل والنقل » وزعه على تسعة فصول اسميناها نحن « مباحث » وكل فصل عرض فيه عدة « أفكار » كلها تدور حول إثبات « فرضية مغايرة الإنسان للبشر » .

والباب الثانى ترجم له بـ« وقائع القصة » وستأتى مواجهة ما يدخل معنا فى اهتمامات هذه الدراسة ، أو المواجهة، أما مباحث الباب الأول فكنا قد وصلنا إلى الفكرة قبل الأخيرة فيه ، وهى :

« برهان التكرار » ونذكر القراء بأننا لم نقف أمام كل ما كتبه المؤلف لأمرين :

الأول : كثرة تكراره وإعادته لما يقول ، فإذا واجهنا فكرة سبقت تجاوزناها إذا تكررت ، اللهم إلا بعض المسائل فقد كنا نواجهها فيها أكثر من مرة . أما ما نهمله من موضوعاته فقد أشرنا إليه فى « الهوامش » وبينا سبب الإهمال .

والذى نتعرض له – الآن – هو آخر ما كتب فى الباب الأول ، وهو ما عنون له بـ : «آدم أبو الإنسان » .

وما كتبه المؤلف – هنا – هو بمثابة تقرير ختامى لمباحث الباب الأول كله . ومحتوياته هى الآتية :

● سؤال صاغه فى العبارات الآتية :

« هل كان وجود هذه الخليقة البشرية مشروعاً واحداً فى الأرض أرادته القدرة الإلهية [١] ، وتابعته فى مراحله المتطاولة ، وسارت به حتى انتهت إلى آدم عليه السلام ؟ أم كان وجود الخليقة فى صورة مجموعة من المشروعات المتنوعة ، أو المتقاطرة على الساحة الأرضية ، عبر الوجود الزمنى الهائل ، وكان آدم أحد هذه المشروعات » [٢] .

---

(١) هذا سهو من المؤلف، لأن القدرة لا تريد . وإنما تنفذ ما تريده الإرادة فكان الصواب أن يقول : « أرادته الإرادة الإلهية، ونفذته القدرة » .

(٢) أبى آدم (١١٥) .

ثم أجاب عن السؤال فقال :

« إننا نبادر إلى نفى الشق الثانى من السؤال نفياً قاطعاً لأسباب تفرض نفسها :

« أن البشرية تعنى فى المفهوم الدينى القرآنى جنساً واحداً ، لا عدة أجناس مقتبس بعضها من بعض كما قررته النظرية الداروينية ، التى أسقطها العلماء فى الشرق والغرب على السواء »(١) .

تعقيب :

نظَّر المؤلف بين فكرته الذاهبة إلى المغايرة بين البشر والإنسان إلا فى العنصر « الترابى » .

وبين نظرية داروين الزاعمة بأن الجنس البشرى كان نهاية المجموعات الحيوانية ، التى كانت تنفصل وتتمايز عن « الخلية » الأولى عبر عملية الصراع بين الأصلح وغير الأصلح أو نظرية « الإنتخاب الطبيعى » .

ثم رفض المؤلف ما زعمته نظرية داروين ، وأزاحها عن دائرة التصور الخيالى الجامح ، ليفسح المكان لإحلال فكرته ، « الخيالية » محل نظرية داروين ، التى رفضها العلماء - كما قال هو - فى الشرق والغرب على السواء .

جمع بين الصواب وغير الصواب :

لقد أصاب السيد الدكتور فى رفض نظرية داروين التى قتلها البحث العلمى الدقيق ، وأحالها إلى سراب خادع وداروين نفسه كفر بها قبل أن يموت ، أو على الأقل كان يفْتى فيها فى أخريات حياته بأنه « لا يدرى » كلما سئل عنها (٢) .

وشاع فى السنوات الأخيرة أن اليهود كانوا وراء خرافة داروين ونظرائه

---

(١) أبى آدم (١١٥) .

(٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين « الأستاذ عباس محمود العقاد » .

كفرويد، وميكيا فيللى، وجان جاك روسو ووليم جيمس، وهم أقطاب ترويج الأباطيل المناوئة لحقائق الإيمان [1].

وفى «بروتوكولات حكماء صهيون» ما يسدد هذا القول ويقويه.

أجل، لقد أصاب المؤلف فى إشارته الموجزة إلى بطلان مزاعم داروين.

لكنه بعد هذا «الصواب» أصر على القول بغير الصواب لأن فكرته التى وضع كتابه من أجلها لا أصل لها إلا التصور الخيالى المحض. وفى كلام المؤلف ما ينم عن اهتزاز فكرته فى عقله وقلبه، فهو كثيراً ما يصدر قراراته فيها بعبارات ليس لها مدلول إلا الشك والارتياب، مثل:

فكأن - لا مانع فى نظرنا، نفترض، ولا يبعد - ليس بعيداً. ولو كان المؤلف يعرض فكرته على أنها احتمال لكان لهذه العبارات معنى مقبول. ولكنه يصر عليها كل الإصرار. ويقدمها على أنها فكرة حاسمة، لا يتطرق إليها أدنى شك.

تأمل معى قوله فى الانتصار لفكرته:

«إن هذا التصور لا يتصادم فى رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين. ذلك أن المشروع الذى بدأ منذ ملايين السنين، بالجسد الطينى كان هدفه النهائى والوحيد خلق آدم، وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين - إن كان هناك تاريخ، إنما هو وقائع بناء جسد آدم، وعقله، وروحه، وملكاته وخصائصه» [2].

أبطل المؤلف من قبل، أو تابع العلماء فى إبطال نظرية داروين، ثم تراه - هنا - يجعل الله - تعالى عما نقول علواً كبيراً - محتاجاً إلى ملايين السنين فى استكمال خلق آدم؟! وبدأ أولاً بناء جسده من طين.

● ثم أخذ يغرس فيه : عقله، وروحه، وملكاته وخصائصه: من سمع وبصر وتجميل صورته خلال ملايين السنين؟!

---

(١) انظر «الإسلام فى مواجهة الايديولوجيات المعاصرة» . مكتبة وهبة.
(٢) أبى آدم (١١٧).

لقد رددنا على هذا الادعاء الخيالى من قبل، واضطررنا لمواجهته - هنا - مرة أخرى؛ لإن المؤلف ذكره من قبل وذكره هنا، وسيذكره مرات أخرى.

وكنا فى المواجهة السابقة قد ساءلنا المؤلف عن سبب هذا البطء فى «تكوين آدم» أهو لعجزٍ فى قدرة الله؟ سبحانه. أم لحكمة؟ ولماذا لم يذكر المؤلف تلك الحكمة من هذا المشروع البطىء - البطىء، الذى اخترعه من الوهم، ثم جعله حقيقة كان هو «أبو عذرتها» ولم تحط بها الإنسانية خُبْراً قبل اكتشافه لها؟

على أنه لم يحدد لنا ما هو عدد ملايين السنين التى قد استغرقها المشروع الإلهى العجيب حقاً. لم يحدد هذا من قبل.

لكنه عاد فقال هنا عبارة تشير إلى عدد تلك الملايين إشارة فيها وضوح وغموض. فقد قال:

«فما هى إلا بضعة ملايين حتى استوى الإنسان (آدم) الذى نبت من التراب، وانبثق من الأرض، لقد تبددت الأحداث والوقائع، ولم يبق منها سوى الحلقة الترابية» (١)؟

قال: «بضعة ملايين» والبضع والبضعة فى اللغة فوق الثلاثة ودون العشرة. فيحتمل أنه أراد أربعة ملايين، أو أراد تسعة ملايين، إذا استبعدنا الثلاثة والعشرة من دلالات: البضع والبضعة. والمقام يرجح أنه أراد تسعة ملايين، وهو أقصى عدد يدل على البضع والبضعة؛ لأن المقام مقام «تهويل» فى طول المدة فلا يناسبه الأقل وإنما يناسبه الأكثر؟

أنت يا سيادة الدكتور تخبر - هنا - عن الله عز وجل والله لا يخبر عنه إلا هو نفسه، أو رسول معصوم من الخطأ فى التبليغ.

فهل يجوز عندك أن يخبر عن الله أحد غير الله ورسله بغير ما أخبر الله ورسله عن الله؟! ألست معنا فى أن فكرتك، ومحاولتك من اصطياد الأدلة عليها

---

(١) أبى آدم (١١٧).

إنما هى رجم بالغيب؟ حقاً إنك - كما قال المناطقة فى مثل فكرتك: « تبحث عن قبعة سوداء فى غرفة مظلمة لا وجود لها » [1] .

بين التكبير والتصغير:

ملايين السنين التى تخيلها المؤلف، لانجاز المشروع الإلهى إياه، رجحنا بمعونة دلالات اللغة، والمقام الذى ورد فيه الكم الهائل من الزمن، إنه تسعة ملايين سنة؟!

هذا الكم الضخم لست أدرى - وهذه خاطرة أسجلها هنا - لماذا عاد الدكتور إلى تصغيره بعد ذلك التكبير، الذى وصفه هو بـ« الهائل » مرات فى كتابه.

وهو فى التكبير اعتمد على مرونة الخيال، أما فى « التصغير » فقد عاد إلى القرآن ينتزع منه الحجة والتمثيل. فاقرأ معنا كلامه:

« وهو تصور ليس غريباً، ولا بعيداً عن الواقع الذى قرره القرآن، مثلاً عن الآخرة حين قال:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٦] .

أى أن الزمان يكون قد انطوى، وسقطت فى جُبِّه - يعنى بئره - كل الأحداث مهما عظمت واستغرقت مئات السنين وهو كذلك ما كرره القرآن فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فى الأَرْضِ عَدَدَ سنينَ* قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ* قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] .

عزيزى القارىء: ما علاقة هذا بذاك، القرآن - هنا - كما يرى المفسرون يصف أحد أمرين:

إما بقاء الموتى فى القبور، حيث يحسون بقصره يوم البعث وإما أعمارهم التى عاشوها فى الدنيا قبل الموت.

---

(١) أى لا وجود للقبعة السوداء فى الغرفة المظلمة، فمحال - اذن - العثور عليها وإن طال البحث. مثل ضربوه لانعدام المستحيل.

والدكتور شاهين طوَّل مدة المشروع الإلهى فى تكوين البشر تسعة ملايين سنة. ثم عاد فصغره. فما للقرآن، وهو يتحدث عن واقع مارسه الإنسان حياً أو ميتاً. بمشروع الدكتور، وهو يتحدث عن خيال واهم؟

بصراحة : أنا لم أفهم لماذا طوَّل الدكتور ثم قصَّر؟ وما علاقة ذلك بفكرته.

بقيت له فقرة «أخيرة» فى نهاية الباب الأول جاء فيها : «وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها في وجود كل مخلوق يدخل فى مضمون الضمائر «أنا – ونحن – وأنت – وأنت – وأنتما – وأنتم – وأنتن – وهو – وهى – وهما – وهم – وهن – وخبرها جميعاً تراب» (١).

سجلت هذه الفقرة وما قبلها لأقر بعجزى عن فهمهما. ثم أقول للأستاذ الدكتور:

أعيـــذها نظـرات منــك صـــائبة ‏ ‏ ‏ ‏ أن تحسب الشَّحْمَ فى من شَحْمُهُ ورمُ

وعفا الله عنا وعنك.

* * *

---

(١) أبى آدم (١١٨).

البشر واللغة

هذا أول مبحث يتصدر مباحث الباب الثانى من كتاب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين «أبى آدم» أما الباب فقد تقدمت الاشارة إليه، وهو:

وقائع القصة

ويأتى هذا المبحث فى طريق خطوات المؤلف نحو الهدف الذى خطط للوصول إليه، وهو - باختصار - أن الإنسان غير البشر؟

فالبشر له أب، أوجد أعلى غير معروف، وهو أسبق وجوداً من «الإنسان» وأبو الإنسان هذا هو آدم، الذى تم «تصنيعه وإنتاجه» بعد مشوار طويل، طويل، استغرق من الزمن تسعة ملايين سنة، وهو العدد الذى يدل عليه «البضع» كما تقدم منذ قليل [١].

وقصد المؤلف من هذا المبحث الاستدلال على حصول ثمرة من ثمرات «التسوية» التى صيرت «البشر» - «إنسان» تمهيداً لظهور آدم «أبو الإنسان» وإعدام كل جماعات البشر الهمجية الغشيمة؟!

وفى أثناء هذه الخطوة تعرض سيادة الدكتور لقضية «نشأة اللغة الإنسانية» وهى قضية غيبية، فلتت من بين أصابع البحث العلمى منذ قرون لا يعلم مداها إلا الله. وفى العصر الحديث تضافرت جهود الباحثين حول هذه القضية دون الوصول إلى رأى يقينى فيها، شأنها شأن كل الأمور الغيبية، ومنها الفكرة «الأم» التى حام حولها المؤلف فى كتابه «أبى آدم».

ولهم فيها مذاهب ونظريات يعتبر كتاب الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى - رحمه الله رحمة واسعة - من أبرز وأجمع ما كتب فى هذا الموضوع - فيما نعلم - حتى الآن[٢] ومن قبل المحدثين تعرض بعض اللغويين القدماء لهذه القضية مثل أبى الفتح عثمان بن جنى فى كتابه المعروف «الخصائص» ثم الإمام

---

(١) انظر (٩٣) من هذه الدراسة.

(٢) انظر كتاب «علم اللغة» د/على عبد الواحد وافى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

جلال الدين السيوطي في كتابه «المزهر» وقد ذكر فيه مذاهب العلماء من الصحابة وغيرهم [١] .

وقد أشار المؤلف إلى تلك المذاهب والآراء. وصفوة القول أنه لم يستطع أحد منهم أن يقول الكلمة الأخيرة في الموضوع وتبقى «مشكلة نشأة اللغة، من الغيب الذي قال الله فيه لرسوله الكريم:

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴾ [النمل: ٦٥].

عرض المؤلف لهذه القضية باعتبار أن تعلم اللغة كان قد تم لدى البشر قرب ظهور آدم «أبو الإنسان» خلال عمليات التطور والرقى المتطاول الأزمان (تسعة ملايين سنة) حسب تقدير المؤلف.

وذكر خلال هذا البحث بعض الأفكار التي تدخل معناً في منهج هذه الدراسة. وهي ثلاثة أفكار نقف أمامها لصلتها باستدلال المؤلف على فكرته «الأم» التي وضع من أجلها كتابه «أبي آدم».

والأفكار الثلاثة هي:

- وجود مخلوقات حيوانية قبل وجود «البشر» برية، وبحرية. وما رتبه المؤلف على هذا «الوجود» والاستدلال عليه بالقرآن.
- كلمة «من الخالدين» في خطاب ابليس لآدم وحواء وهو يحثهما على معصية الله.
- علة تسمية «آدم» بهذا الاسم.

وعلى هذا الترتيب ندير الحديث حول هذه الأمور الثلاثة.

وجود حيوانات قبل خلق البشر:

في البدء نقول: نحن لا نتحمس لنفي هذا الوجود، ولا لإثباته، والأهم لدينا مناقشة استدلال المؤلف عليه من القرآن الكريم.

---

(١) المزهر (١/٧ – ٢٥) نشر عيسى الحلبي – القاهرة.

يقول المؤلف:

« ومن المسلم به علمياً أن وجود البشر كان مسبوقاً بوجود الكائنات الأخرى، من الطير والحيوان في البر والبحر، وكانت هذه تشكل عالما من الكائنات.. كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشرى، فمنها كان قوت البشر، ووسائل عملهم. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات. ودور الغراب في قصة ابنى آدم ذو دلالة ظاهرة فى هذا المجال:

- أى أن الإنسان فى مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه، حتى شاهد - وهو فى قمة مأساته - الغراب يلقنه درس الدفن، بعد أن دخل سن الرشد، ودخل فى المرحلة الآدمية الجديدة »[1].

ساق المؤلف هذه الفكرة لحاجة فى نفس يعقوب. فهو قد جزم بأن « البشر » فصيلة منحطة، فأراد أن يتسلل إلى عقول القراء (قراء كتابه) ويبث فيها نوعاً من الاقناع ليؤمنوا بالفكرة « الأم » التى يصارع من أجل الانتصار لها. فالدليل - عنده - على صحة فكرته أن الطيور والحيوانات العجماوات كانت أرقى منه فكراً، وأذكى بصيرة، وأقدر على مواجهة الأزمات بأسلوب حضارى مناسب.

فابن آدم - ولا بد هنا أن يكون إنساناً لا بشراً حسب خطة المؤلف - عجز عن التخلص من جثة أخيه بعد أن قتله، وظل فى حيرته لا يدرى ماذا يفعل، فبلغت « العقدة » مداها ولم يخرجه من هذه « الورطة » إلا فعل الغراب، الذى قام أمامه بحفر الأرض، ثم وارى فيها غراباً آخر كان قد مات.

لاحظ - عزيزى القارىء - أن المؤلف - هنا - يتحدث عن الإنسان، ولا يستطيع أن يعزو هذه الواقعة إلى البشر، لما علمت أن مذهب المؤلف يعزل « بنو البشر » عن « بنو آدم » لأنه يعزل - أساساً - بين البشر والإنسان.

ولما كانت هذه الواقعة القرآنية منسوبة إلى ولدين لآدم وهذه النسبة لها

---

(١) أبى آدم (١٢٢).

دلالة قاطعة على أن الحياة الآدمية البشرية الإنسانية بدأت أول مرة فى الوجود بخلق الله آدم وتنفى نفياً قاطعاً أن يكون للبشرية وجود قبل خلق الله آدم.

لما كانت هذه الواقعة القرآنية تنسف كل الأوهام التى تفترض وجود حياة للبشر قبل آدم، سواء خطرت هذه الأوهام على أذهان قدماء أو محدثين، فإن المؤلف – وله قدرة بارعة على التخلص بكل لطافة من «العراقيل» الجدلية، سواء كانت نقلية أو عقلية».

سارع إلى إزالة هذه «العرقلة النقلية القرآنية» وقد استخدم فى إزالتها حيلة لطيفة لم تطاوعه عليها نفسه، وهو فى أمس الحاجة إليها. فانظر إلى ما قال:

«ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا فى بداية وجودهم وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون: أى يأكل بعضهم بعضاً» [1].

يا سبحان الله؟ لماذا يا سيادة الدكتور تضع نفسك فى هذه المضايق الخانقة، وتضطرها إلى فعل المستحيل لكى تخرج منها، وما أنت بخارج؟ أما قرأت قول الشاعر المجرب؟:

دخول المرء فى الشبكات هيِّن ولكــن التأمــل فى الخــروج

واسمح لنا أن نكشف لك سراً دفيناً لشأن من شئون نفسك وأنت تكتب هذه العبارة. ذلك السر هو أن نفسك – شكر الله لها ما احتجت به عليك – لم ترض لك أن تذهب هذا المذهب من الوهم. فلما لم تطعها أنت أبت إلا أن تكون عبارتك دالة على احتجاجها عليك. ولكن كيف عرفنا هذا؟ عرفناه من أنك تقول:

«ولا يبعد أن نتصور» ونفى الشيء – ابتداء – دليل على ثبوته واقعاً، قبل نفيه لفظاً.

لقد أشعرتك نفسك – شكر الله لها ما صنعت – أن ما تقوله بعيد، بعيد. فرحت أنت ترد عليها فقلت: ولا يبعد ... أليس كذلك يا سيادة الدكتور؟

---

(١) أبى آدم (١٢٢).

ودعنا من هذا الذى جرى بينك وبين نفسك من صراع خفى يدب دبيب النمل. وتعال – أولاً – نسألك هذا السؤال اللحوح جداً:

عمَّن تتحدث أنت يا دكتور؟ عن الإنسان أحد ابنى آدم أم عن البشر؟

قطعاً أنت تتحدث عن الإنسان لا عن البشر، لإنك تتحدث عن وَلَدَى آدم، وآدم – عندك «أبو الإنسان» لا البشر وإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ لَمْ تترك «البشر» فى حالهم وقد انقرضوا قبل ظهور آدم؟ لِمَ تمثل بالبشر فتقول: «ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا فى بداية وجودهم ... يتآكلون ويتفارسون: أى يأكل بعضهم بعضاً»؟!

لِمَ لَمْ تقل: «أن الإنسان .....»؟ نحن نعرف لماذا لم تقل: «أن الإنسان» (كانوا فى بداية وجودهم يتآكلون). لإن آدم وولديه اللذين قتل أحدهما الآخر، هم بداية وجود الإنسان. وهذا منعك من أن تقول «أن الإنسان لإن آدم وولديه هم بداية الإنسان» أليس كذلك يا دكتور؟

لذلك اضطررت أن تلصق هذه «الأسطورة» بالبشر ومع هذا فإن ما قلته ليس بنافعك أبداً – يعنى إذا سلمنا لك جدلاً بأن البشر فى بداية وجودهم كانوا يأكل بعضهم بعضاً أتدرى لماذا لا ينفعك هذا؟ إليك البيان:

أنت قلت إن ما بين بداية المشروع البشرى وظهور آدم ملايين السنين. وترجمناها نحن بتسعة ملايين سنة.

إذن فما أبعد ما بين بداية البشر وبين بداية الإنسان حتى يقتدى الإنسان فى بداية وجوده بعادة قديمة جداً جداً؟ أليس هذا مجرد كلام يا دكتور؟

فإذا عدلت عن التحديد بالبداية وقلت: إن البشر قبل آدم كان يأكل بعضهم بعضاً. إذا قلت هذا وقفنا أمامك وسددنا عليك الطريق، وإن كان الطريق مسدوداً قبل وقوفنا أمامك فيه.

أتدرى لماذا مرة أخرى؟ لأننا سنقول: ولماذا لم يقتد ابن آدم (الإنسان) الذى قتل أخاه، لماذا لم يقتد بما كان يفعله البشر قبيل ظهور آدم وولديه فيأكل جثة أخيه كما كان يفعل البشر من أكل بعضهم بعضاً قُبَيْل بداية عصر الإنسان؟!

يا سيادة الدكتور إن الرجوع إلى الحق واجب، فوق أنه فضيلة، وقد عهدناك منصفاً للحق من غيرك أفلا تنصف الحق من نفسك؟ وأنت أقدر على نفسك منك على نفوس الآخرين.

.. وكنا نودُّ:

وهذه الواقعة القرآنية، التي يقول الله فى قصة قتل أحد ابنى آدم أخاه، وتحيُّر القاتل كيف يوارى جثمان القتيل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] .

هذه الواقعة القرآنية نسبت أنت الفضل والحكمة فيها للغراب لتثبت تفوّق الغراب وانحطاط البشر، وكان حريا بك وأنت داعية مخضرم أن تضع الواقعة موضعها من الفضل والحكمة الإلهية لا أن تظهرها وكأنها من عنديات الغربان فليست المسألة كما تصورت من تفوق الحيوان على البشر. بل الغراب – هنا – جند من جنود الله، مبعوث بأمر من أوامر الله، لإظهار توجيه من توجيهات الله. وصدر الآية دليل على ذلك ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً﴾ . وحتى «الاراءة» فى «ليريه» ليس فاعلها الحقيقى الغراب. بل الفاعل هو الله. ومعذرة يا سيادة الدكتور. لأن العتب لا يفسد للود قضيته.

كلمة «الخالدين»:

ومما استدل به المؤلف على سبق البشر لآدم أبى الإنسان وبنيه، ورود كلمة «الخالدين» فى اغراء إبليس آدم وحواء ليأكلا من الشجرة المحرمة. وذلك فى قوله تعالى فى سورة الأعراف [٢٠]: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ .

قال المؤلف معقباً على هذه الكلمة ليتخذ منها دليلاً على صحة فكرته أن البشر سبقوا آدم فى الوجود، وأن الأرض كانت معمورة بهم من قبل ظهور آدم بملايين السنين (تسعة ملايين سنة) قال:

« فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود؟ وكيف لهما أن يتخيلاه وهو معنى مرتبط بواقع لم يحدث من قبل، على فرض أنهما - يعنى آدم وحواء - أول المخلوقات البشرية. ونعنى به واقع الموت وهو ضد الحياة » [1] ثم يقول فى اقتناص الدليل منها:

« إن ذلك يؤكد أنهما - آدم وحواء - عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت، وابتلعها الفناء.

« ولعل الخلود والبقاء كان حُلْماً يراودهما، فجاءهما الشيطان من هذا الباب، وقد عرف حُلْمهما، أو نقطة ضعفهما، فقاسمهما ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ.. ﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٢] [1]. يستبعد المؤلف أن يكون لآدم وحواء مصدر يعرفان منه معنى « الخلود » إلا إذا أيقنا بوجود البشر قبله، ووجود لغة لهم كانت فيها كلمة « الخلود » متداولة كما كان فيها الموت اسماً وفعلاً.

لا يا سيادة الدكتور:

بل لا وألف لا، فليس بلازم بأى جهة من جهات الإلزام أن تكون معرفة آدم وحواء مصدرها الوحيد ازدهار الحياة البشرية قبلهما. فالمصدر معروف معرفة يقينية لا يتسرب إليها مثقال ذرة من شك.

ولو أن السيد الدكتور سرَّح نظره وفكره فى القرآن المجيد، ومن القرآن ما يفسر بعضه بعضاً، لو أنه فعل ذلك وولى نظره وفكره شطر سورة البقرة لوجد جواب تساؤلاته أنصع بياضاً من الشمس فى رائعة النهار، ولتهاوت تساؤلاته صرعى أمام الحق الأبلج. فقصة خلق آدم والصراع بينه وبين الشيطان ذكرت فى القرآن فى سبع سور:

ست مكيات، وهى: ص، والحجر، والإسراء، والأعراف، وطه، والكهف، وهى آخر السور المكيات الست نزولاً.

---

(١) أبى آدم (٢٧).

ثم ذكرت فى سورة البقرة المدنية، ذكرت فيها بعرض جديد، وعناصر أخرى جديدة من هذه القصة [1] .

فى سورة البقرة أخبر الله عن نفسه بأنه: ﴿ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[٣١] .

والموت والحياة، والخلود، والخالدين من الأسماء التى علمها الله آدم؛ لأن الله تعالى بقدرته الهائلةعلم آدم أسماء الأشياء جميعها، حتى ما استجد منها بعد ذلك الزمن السحيق لإن «أل» فى «الأسماء» لشمول جميع أسماء الذوات المادية وأسماء المعانى الذهنية، والدليل الذى لا يُنازع فيه على أن «الـ» فى «الأسماء» لشمول جميع أسماء الأشياء، وهو الذى يسميه علماء اللغة والمعانى «الاستغراق» الدليل على هذا هو أن رب العزة لم يقل:

«وعلم الأسماء . .» فحسب، بل قال: «كلها» ودلالة «كل» فى اللغة الحصر، أى حصر كل ما وقعت «كل»، «قيداً» له فلا يخرج من أفراده فرد واحد .

هذا هو المصدر الحق يا سيادة الدكتور فى أن آدم وحواء عرفا معنى الخلود، وما يشتق منه من أفعال: خلد – يخلد أخلد، ومصدر: خلداً، والصفات المشتقة: خالد – مخلد . .

فماذا تكون هذه الحفنة من الأسماء يا سيادة الدكتور مما لا يحيط به إلا علام الغيوب، الذى علّم آدم الأسماء كلها هكذا: «الأسماء كلها»؟

إن هذه الجملة الكريمة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ من «المحكم» الذى يفيد معناه على سبيل القطع، كإفادة ثلاثة وسبعة على عشرة فى قوله عز اسمه:

﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[البقرة:١٩٦] .

فهل يعلو صوت فوق هذا الحق الأبلج، فيقول: تلك تسعة أو تلك أحد عشر؟!

---

(١) إذا شئت فأرجع إلى دراسة مستفيضة لهذه القصة فى سور القرآن الكريم السبع فى «خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية» (جزءان) لكاتب هذه الدراسة . مكتبة وهبة .

يا سيادة الدكتور الوقور: لماذا ندير ظهرنا لثوابت الحق، لنضع مكانها «هواجس» يعيينا الدفاع عنها؟!

إن رجاءنا فيك كبير أن تعيد النظر والتأمل في ما تقول وألا تصر على ما لا سبيل إلى الظفر به.

● **لماذا سمى «آدم» بـ«آدم»؟**

عقيدة الأمة أن الله عز وجل هو الذى سمى أبانا آدم بهذا الاسم؛ لأنه أول مخلوق بشرى على وجه الأرض. وتسمية الله لبعض أنبيائه من الثوابت الواردة فى القرآن، كتسميته لابن زكريا بـ«يحيى» عليهما السلام: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى، لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

كما سمى نبينا - ﷺ - أحمد، حيث حكى القرآن الأمين عن عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ، مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ﴾ [الصف: ٦].

وفى لسان العرب اشارة إلى علة تسمية (آدم) بـ(آدم) من جهة اللغة، وهى: لأنه خلق من الأرض، يعنى خلقه المباشر كان من الأرض [١].

ولم يطرأ على هذا الفهم أو الاعتقاد طارىء منذ بعث الله محمداً - ﷺ - فصار هذا إجماعاً سكوتياً لم يعرف له مخالف.

بيد أن المؤلف حين يعرض لهذه المسألة ينزع به الخيال منزعاً آخر، ونذكر كلامه أولاً ثم ننظر فيه:

«وبقى سؤال لم يطرحه ممن تناولوا هذه القصة، فى القديم والحديث.

والاسم رمز المسمى. فهل يمكن أن يطلق على آدم هذا الاسم، دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً فى الرقى اللغوى قبل مرحلة الإنسانية الآدمية. وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، فهل

---

(١) انظر اللسان (١/ ٤٦).

لا يوحى منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية، أو أسماء لمعان مجردة وأن حصيلة ذلك كانت فى عقل آدم؟

أو استطاع آدم أن يحصلها » [١] .

تعقيب :

ولنا على هذا الكلام تعقيب قصير، ولكنه ذو أهمية. لأنا نرى المؤلف فى أول هذه الفقرة يسأل :

من أين جاءت تسمية آدم؟

فإن كان يريد سبب التسمية، فسببها أو علتها أنه مخلوق من أديم الأرض ذى اللون الأسمر. هذا رأى، أو لأن عناصر التراب الطيبة اختلطت فيه، وهذا رأى، أو لخاصية فيه من الأُنس والألفة. وهذا رأى، وكل هذه الآراء وردت فى المعاجم اللغوية فوق لسان العرب، الذى أشرنا إليه.

والمؤلف نفسه أشار إلى أن علة تسميته بآدم أنه مخلوق من أديم الأرض.

ويرتب على هذا ما هو أهم – عنده – لأنه يستبعد أن تكون هذه التسمية جاءت من فراغ؛ ويريد من هذا أن ظهور آدم على وجه الأرض لم يكن أول ظهور للحياة البشرية. بل لابد أن يكون للبشرية قبل آدم وجود ورقى وازدهار، وأن الأرض كانت مملوءة بمسميات كثيرة مادية ومعنوية.

فاسم آدم – إذن – ثمرة من ثمرات تلك الحياة البشرية السابقة على وجوده منذ ملايين السنين « تسعة ملايين سنة » أو لعلها تزيد؟

هذا ما يريد المؤلف إثباته لتنسجم كل الأوضاع مع فكرته التى يروج لها من أول كتابه « أبى آدم » إلى آخر حرف فيه، ثم تراه – بعد ذلك – يستشعر سؤالاً ويذكره تمهيداً للرد عليه، وإزاحة دلالته من طريقه. يقول: « قد يقول قائل: إن اسم آدم هو اختيار الله، اطلق على أول خليفة فى الأرض» [٢] .

ومع اعتراضه على هذا القول صراحة، فإن كلامه بعد ذلك يعتبر، وبكل وضوح، اعتراضاً قائماً مقام التصريح. فتعال ننظر فيما قال:

---

(١) أبى آدم (١٢٩) .

(٢) أبى آدم (١٢٩) .

قال: « ولكن التناسب الذى نجده بين الاسم و المسمى، أى بين معنى كلمة (آدم) والمادة التى ينتمى إليها، وهى (أديم الأرض) هذا التناسب لا يمكن أن يتصور حدوثه على سبيل الصدفة والفجاءة. فالفجاءة خروج على سنة الله فى الخلق والتسوية والابداع » (١) ؟

كلام المؤلف - هنا - ذو دلالة قوية على رفضه أن يكون الله هو الذى سمى آدم بـ (آدم) لأنه لو كان قد سلَّم بهذا فلا يستساغ لديه، وهو المؤمن الداعية، أن ينفى عن الله علمه بدقة التناسب بين الاسم والمسمى.

فهو إذن - رضى أو لم يرض - يُنكر تسمية الله لآدم، ويعزو هذه التسمية لأبى آدم وأمه، آخر عنقود السلسلة البشرية التى كانت قد خلقت قبل آدم هذا بملايين السنين (تسعة ملايين سنة)؟ من خلال المشروع الإلهى الذى تخيله المؤلف من قبل من الفراغ. ثم جعله حقيقة راسخة لابد من اخضاع معانى كلام الله لها فى كتابه العزيز، وإعمال معول التأويل الجبرى فيها، وإن سمت فوق كل صرف أو تأويل.

ويؤيد هذا فيقول:

« فلم يبق إلا أن نفترض مستوى من النُضج اللغوى، بلغته البشرية فى أواخر مرحلتها. وفى بواكير العهد الإنسانى » (٢).

يا سيادة الدكتور: نستحلفك بالله: هل هذا أسلوب بحث علمى ترضاه أنت من غيرك. لو كان غيرك قد تبنى فكرتك وراح يلوى أعناق النصوص القرآنية المقدسة، بهذه القسوة؟ وبهذه الجرأة؟

لو كانت نصوص القرآن محلاً لهذه التأويلات الأغرب من بيضة الديك، أو الغراب الأبيض لفقدت اللغة كلها التى نزل بها القرآن معاييرها، ولفقد الناس ثقتهم فيها؛ لأنها لم تعد تؤدى معانى يتواطأ عليها الناس فى حقائقها ومجازاتها كما حاول ابن عربى من قبل فى كتابه « فصوص الحكم » ومن غرائبه أن جعل الذين كفروا بنوح هم المؤمنين الفائزين. أما الذين آمنوا به فهم أصحاب النار وبئس المصير.

---

(١) أبى آدم (١٢٩).

(٢) أبى آدم (١٢٩).

لم يتوصل ابن عربى « الباطنى » إلى هذه الخرافات إلا عن طريق التأويل الغريب. واللعب، أو قل العبث بمعانى اللغة، وهذا هو الأمر الذى حمل الإمام ابن تيمية على إنكار المجاز فى اللغة بوجه عام. وفى القرآن بوجه خاص ليحمى كتاب الله من الانصهار فى بوتقة التأويل [١] .

ونحن لا نرضى لك وأنت داعية نعتزبك ونعرف بلاءك الطيب فى مجال الدعوة، أن تتخذ من هذا المنهج (الابن عربى) وسيلة من وسائل البحث العلمى، فى قضية محسومة، وما فى القرآن من حديثها إنما هو آيات محكمات « هن أم الكتاب » هى شموس ساطعة بذاتها، والشمس لا تحتاج إلى جالٍ يجلوها، أو صاقل يصقلها؛ لأنها هى مصدر الجلاء والصقل.

آدم مُعَلَّم لا مُتَعلِّم:

ونذكرك؛ لأننا نعرف لك فضلاً - أن آدم مُعَلَّم لا مُتَعلِّم من تلقاء نفسه.

فأنت بعد أن ذكرت قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قلت بالحرف:

« إن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية أو أسماء لمعان مجردة. وأن حصيلة ذلك كانت فى عقل آدم؟ أو استطاع آدم أن يحصلها » [٢] .

ومعنى هذا الكلام أن آدم رجل (عصامى) قد علَّم نفسه؟!

هل يستقيم يا سيادة الدكتور أن يقول الله إنَّه هو الذى علَّم آدم الأسماء كلها وأنت تقول: لا. بل آدم هو الذى قد علم نفسه، والتقط تلك الأسماء من بيئة البشر « الوهمية »؟ هل يستقيم هذا الكلام يا سيادة الدكتور؟

إنها - بلا شك - فلتة قلم، أو غفلة ذهن، ومحال - عندنا - أن تقصد هنا المعنى الشنيع. وكما جاء فى الحديث الشريف: « كل ابن آدم خطاؤون، وخير الخطَّائين التوابون » ثم، هل غاب عن أذهاننا، أو ضل عن وعينا أن آدم لو كان هو الذى حشا عقله بأسماء الموجودات فى الساحة تلك - كما افترضت - وليس

---

(١) انظر إن شئت « المجاز فى اللغة وفى القرآن الكريم بين الإجازة والمنع، لكاتب هذه الدراسة (جزءان) مكتبة وهبه.

(٢) أبى آدم (١٢٩).

الله هو الذى علمه إياها فهل يكون لآدم فضل على الملائكة؟ كلا؛ لأن الملائكة كانت ستكون أحفظ وأوعى لتلك الأسماء من آدم، فهم ذوو ملكات نورانية نفاذة، وهم أسبق وجوداً فى الحياة العلوية والسفلية من آدم، وأنهم لا يموتون. وإطلاعهم على مجريات الحياة أوسع من إطلاع آدم، فكيف غابت عنا معرفة الملائكة بتلك الأسماء، لو كان لها وجود ظاهر قبل خلق آدم فى بيئة «البشر» الوهمة؟

على الأقل – إذا افترضنا الحد الأدنى. أن تكون معرفة آدم والملائكة بتلك الأسماء متساوية.

أما أن ينفرد آدم بمعرفتها، ويجهلها الملائكة ويسقطوا أمام الله فى ذلك الاختبار فهذا لا يتصوره عقل. أن تعليم الله الأسماء لآدم كان معجزة رشح الله بها أحقية آدم بالخلافة فى الأرض، وبياناً ناصعاً بعد الإجمال الذى خاطب الله به الملائكة حين تساءلوا عن الحكمة فى جعل آدم خليفة مختاراً من الله فى الأرض ﴿ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.. ﴾.

هدانا الله وإياك إلى ما يرضيه، ويرضى رسوله وصالحى المؤمنين.

* * *

الإنسان والملائكة

هذا هو المبحث الثانى من الباب الثانى . وما كتبه المؤلف فيه خيال فى خيال، وقد استعان على امتداد هذا الخيال بصور من التأويل المسوغ لفرض الرأى العارى من السند ؟

وعلى كل حال فما كتبه المؤلف – هنا – خفيف الوزن فى مجال اقتناص الأدلة على إثبات فكرة ما .

ومن أول التصورات الواهية تحديد المؤلف بدء العلاقة بين الإنسان والملائكة حين كان الإنسان بشراً . لما أعلم الله الملائكة أنه « خلق » أو سيخلق بشراً من طين، ليهىء الله الملائكة لمراقبة ما سيحدث من متغيرات على ساحة الأرض .

● وحين خاطب الله الملائكة فى ذلك الزمن كان مضمون الخطاب مشتملاً على مجموعتين من العناصر:

عناصر أوجدها الله فعلاً، وهى خلق البشر الغشيم الهمجى، الذى لا سمع ولا بصر ولا عقل له .

وعناصر سيتم إضافتها إلى هذا المخلوق البشرى (الخام) وهى التسويه ونفخ الروح، ووقوع السجود من الملائكة لآدم .

● إن عملية التسوية استغرقت ملايين السنين، وهو الفرق الزمنى بين خلق البشر، وبين وقوع السجود من الملائكة له .

● لما قال الله للملائكة ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ عرفوا أن أوان السجود الذى أمرهم الله به من ملايين السنين (تسعة ملايين سنة) قد حان وقته الآن ؟

● كانت الملائكة تراقب أحوال البشر خلال ملايين السنين، فلم تر منهم إلا سفك الدماء والإفساد فى الأرض، لذلك فزعت إلى ربها كيف يجعل هذا

المخلوق الشرير خليفة فى الأرض، معتذرين إلى الله بأن هذا المخلوق سيشوش عليهم حين يسبحون الله ويقدسونه؟!

● إن قتل النفس لم تكن عليه عقوبة طوال عهد البشر قبل آدم، الذى استمر ملايين السنين؛ لأن البشر لم يكونوا أهلاً لأن يرسل الله إليهم رسلاً، ولا عقاب عند الله إلا بعد إرسال الرسل؟!

● إن الملائكة حين أخبرهم الله بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، لم يكونوا يعرفون من هو ذلك الخليفة من البشر الذى سيجعله الله خليفة فى الأرض؟!

هذه نماذج من التصور الخيالى الواهم التى وردت فى هذا المبحث وكلها – كما ترى – إخبار عن الله وعن الملائكة لم ترد إلا فى كتاب « أبى آدم ».

والذى من حقه أن يخبر بهذه الأخبار عن الله، وعن الملائكة هو الله وحده، أو رسوله الكريم بإعلام له من الله.

ومع هذا فإننا نرى المؤلف ينطلق مع خياله الجامح، ويحدثنا عن أمور غيبية ليس لأحد من خلق الله أن يحدّث بها.

إنها أمور هى « عماء » فى « عماء » فمن أين – يا ترى – استقاها المؤلف والله عز وجل حين قص على رسوله فى كتابه أخبار الرسل مع أممهم وهم أقرب وجوداً من البشر الذى افترض وجوده المؤلف قبل آدم. حين أخبر الله رسوله بهذا قال ممتناً عليه:

﴿ تِلْكَ مِن أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ؛ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

إذا كان هذا هو شأن الرسول من عدم الاطلاع أو العلم بأمور حدثت فى عهد نوح ومن بعده من الرسل عليهم السلام، فكيف، ومن أين لنا بعد أربعة عشر قرناً من عصر الرسالة الخاتمة نمزق أستار الزمان والمكان ونعود إلى زمان أزلى ونخبر عنه كأننا كنا نعيش فيه، ونسجله على آلات الضبط شكلاً وحجماً وصورة وصوتاً؟! ألسنا نكون قد تجاوزنا حدود كل مقبول ومعقول؟!

وليت الأمر وقف بنا عند هذا الحد، إذن لهان الخطب. ولكنا نخبر عن عالم علوى، ونسجل لقطات من وقائع حدثت بين الله وملائكته فى السموات العلا،

بل ونفتح « جوانيات » الملائكة ونتحدث عن سرائر أنفسهم وميولهم، ونحن لم نرهم . إن هذا لهو غيب الغيوب .

والله عز وجل لما قص على رسوله ما دار فى السموات العلا، وما دار بين سدنة بيت المقدس حين ولدت امرأة عمران ابنتها مريم وهى أحداث جزء منها وقع فى السماء، وجزء وقع على الأرض . ومع هذا يقول الله لرسوله الكريم :

﴿ ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

اليست هذه كلها – وغيرها كثير – أضواء حمراء تحذرنا من أخطار السير فى هذه الطرق الوعرة؟ إن للعقل حدوداً ينبغى أن يقف عندها، وله مجال يسبح فيه فيجيد السباحة، ويعمل فيتقن العمل، فإذا تجاوز العقل هذه الحدود هوت به الريح فى مكان سحيق. لابد للعقل أن يتقيد بالوحى فى حقائق الإيمان الغيبية ويجثو على ركبتيه أمام الوحى فى تلك الأمور؛ فإذا استعصى عليه فهم شىء فليقل كما قال السلف الصالح – كما حكى عنهم القرآن الأمين :

﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] .

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

تذكـــير :

نحب أن نبين – هنا – أو نذكر بأمرين :

الأول : أن المؤلف – جريا وراء إثبات فكرته من مغايرة البشر للإنسان، وأن البشر لم يكونوا مكلفين بتوحيد الله وعبادته وأن اسم آدم ورد فى القرآن فى مرحلة متأخرة من مراحل بناء القصة، وهذا الذى ذكره سهو منه، لأنه علق على آية البقرة ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ وما جاء بعدها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ففهم أن التصريح باسم آدم جاء أول مرة فى القرآن فى آية البقرة هذه . وهذا – بالطبع ينسجم مع الدعوة التى ادعاها بأن آدم ظهر بعد انقراض البشر. وهذا غير صحيح فقد ورد اسم آدم فى القرآن المكى :

ففى سورة الأعراف [١١] ورد قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ، ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ .

وفيها [١٩] : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . . ﴾ .

وفيها [٢٦] : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ .

وفيها [٢٧] : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ . . ﴾ .

وفي سورة يس : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [٦٠] .

وسورتا الأعراف ويس مكيتان، إذن فقول المؤلف معقبا على قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . ﴾ وهذه أول مرة يذكر فيها لفظ «آدم» هذا القول سهو ظاهر، والذى تسبب فى هذا «السهو» هو العجلة، والتلهف على اقتناص الأدلة من القرآن الكريم على فكرة القرآن منها برىء .

ونذكر المؤلف ببيت من الشعر، درسه في شواهد «علم لبلاغة» : في ثانوى الأزهر :

جاء شقيق عارضا رُمْحَهُ   إن بنى عمك فيهم رماح ؟

والمؤلف من ادرى الأساتذة بمعنى هذا البيت .

أما الأمر الثانى فإن المؤلف يصر فى هذا المبحث على أن البشر على مدى ملايين السنين التى عاشوها لم يكونوا متدينين ولا أرسل الله إليهم رسلاً، وإنما بدأت الرسالات السماوية بعذ ظهور آدم أبى الإنسان .

وكان قد قال بهذا مرات من قبل، وكنا قد واجهناه فى دفع هذه المقولة الموغلة فى البطلان . ولما عاد لها هنا نعود إليها بدليل قاطع على بطلانها فنقول :

يا سيادة الأستاذ الدكتور: لو كان ما تقوله صحيحاً من الفروق بين البشر والإنسان . وأن البشر عاشوا قبل عصور الإنسان التى بدأت بظهور آدم . لو كان هذا صحيحاً فمحال نقلاً أن يترك الله خلقاً له اسمهم البشر ملايين السنين دون أن يرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين .

وأن هذا الذى تدعيه يعارض خبراً لله أنزله فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَإِن مِن أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] .

وأنت تعلم أن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِن أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فيهَا نَذيرٌ﴾ أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء، وأن معناه: ما من أمة خلقها الله فى أى زمكان وفى أى مكان إلا وقد أرسل إليها رسولاً. وهو كما يقول البلاغيون قصر حقيقى. فهل يستقيم بعد ذلك القول بأن أمما متطاولة عاشت ملايين السنين يهملها الله من التوحيد والعبادة والأوامر والنواهى.

هذا - والله - أمر عجيب. وقول بلا سند، ودعوى لا يصدقها عقل، ولا يهادنها نقل.

● **استدلال هزيل:**

بقى من المبحث الثانى من الباب الثانى وقائع القصة؟ مسألة عرضها المؤلف، حاسبا إياها دليلا على محاولات تثبيت دعواه أن «البشر غير الإنسان» فى نشأة الحياة الآدمية وتطورها، تلك المسألة هى ما ورد فى قول الملائكة فى حوارها مع الله، حول جَعْلِ آدم فى الأرض خليفة، وهو قولهم:

﴿.. أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..﴾.

وقد عَنْوَنَ المؤلف لهذه المسألة بقوله: «علاقة الإنسان بالملائكة».

وكان أول ما أثاره حولها رفضه لرأى نسبه لجمهور المفسرين قال فيه:

«ويحلو لبعض المفسرين - أو لجمهورهم - أن يفترضوا أن الملائكة كانوا يرون أنهم جديرون بهذه الخلافة، دون البشر» (١).

ثم كرَّ يرفض هذا الافتراض فقال:

«وهو افتراض لا يقبله العقل..» (٢).

ثم ساق مبررات هذا الرفض من وجهة نظره، ثم قال مُبَيِّنًا التفسير (الصواب) لسؤال الملائكة، كما يراه هو، قال:

«إن معنى السؤال، يقصد سؤال الملائكة، : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

(١، ٢) أبى آدم (١٣٢ - ١٣٣).

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ . .﴾ لا يتضمن رغبتهم فى تلك الخلافة، أو حسد البشر عليها، بل هو تعبير عن استغرابهم لما يتوقعونه من استمرار الفساد، وتزايد التشويش فى الأرض على تسبيحهم وتحميدهم وتقديسهم لجلال وعظمة الله» [1] .

والذى عزاه لجمهور المفسرين، ثم رفضه وقضى عليه بأنه افتراض لا يصدقه العقل ليس أولى بالرفض من – رأيه هو الذى أبداه – بكل ثقة – ليحل محل – رأى المفسرين الذى أبطله بحرف العطف «بل» المفيد للاضراب والانتقال والإبطال .

فكان حريا به أن يعدم – رأيه هذا كما اعدم ما عزاه لجمهور المفسرين، مع أن عزو هذا الرأى لجمهور المفسرين – كما زعم المؤلف – ليس صحيحاً؛ لأن كثيراً من المفسرين يحملون سؤال الملائكة على استكشاف وجه الحكمة فى هذا الجعل، لا على الاعتراض وطلب الخلافة، أوالإنكار على الله عز وجل .

وهذا لو حدث لكان معصية منهم لله؟ والملائكة مجبولون على الطاعة، وليست المعصية من طبائعهم، وقد أثبت الله لهم هذا فى أكثر من موضع من القرآن الكريم، ففى سورة الأنبياء، آية [٢٧] يقول الله فى شأنهم :

﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ، وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ .

وفى سورة التحريم آية [٦] يقول فى وصفهم :

﴿ . . لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

وعلى هذا يتعيَّن أن سؤال الملائكة إنما هو استعلام من الله عن الحكمة التى غابت عن الملائكة فى جعل الله آدم خليفة فى الأرض . أما ذكر الإفساد فى الأرض وسفك الدماء فى جانب «الخليفة» والتسبيح والتقديس فى جانب الملائكة، هذه الأوصاف الأربعة، إنما ذكرتها الملائكة ترشيحاً لرفع سؤالهم إلى الله ليبين لهم تلك الحكمة التى غابت عنهم ولولا هذه المرشحات الأربعة للزم أن يكون السؤال هكذا : «أتجعل فيها خليفة؟! وهذا – كما ترى – سؤال لا مبرر له فهو على وزان

---

(١) أبى آدم (١٣٢ – ١٣٣) .

أن تقول أنت لرفيق لك: أتركب سيارتك؟ وليس فى ركوب المرء سيارته حرج.
أما سؤال الملائكة على الصورة التى ورد بها فى النظم الحكيم فهو على وزان أن تقول لرفيقك:

«أتركب سيارتك وهى معطوبة» ولولا ذكر عُطل السيارة ما كان لسؤالك معنى (١).

لكن المؤلف – سامحه الله – كثير الغض من شأن المفسرين ولم نراه وافقهم فى شىء نقله عنهم أبداً. وهذا يدعوا إلى الدهشة والحيرة.

من أين عرفوا السفك والإفساد؟

المؤلف – كما ترى – قنَّاص ماهر فى تَصيُّد الأدلة من النصوص القرآنية، وعلى كثرة ما ذكر من آيات ما رأيناه يعجز عن تطويع آية، أو عبارة ليتخذ منها دليلاً على تأييد فكرته، لأن المعول الذى حمله فى «يمناه» وهو «التأويل» الغريب المرفوض سوَّغ له أن يقول ويفهم من الآيات ما يريد لما يريد، بدون أية ضوابط إلا ضابط الانتصار لفكرته الوهمية.

فبعد الذى ذكرناه من كلامه حول سؤال الملائكة ربها راح يقتنص عن طريق الخيال الجموح دليلاً آحز من قولهم:

﴿ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ.. ﴾ ومبنى هذا الاستدلال عنده سؤال قدره فى نفسه حاصله:

من أين عرفت الملائكة سفك الدماء والإفساد فى الأرض فى بداية عهد الإنسان؟

والجواب على هذا السؤال بادر المؤلف بذكره فقال: «ونبادر – هنا – إلى تسجيل ملاحظة، على عبارة الملائكة: ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فهى إشارة إلى انتشار جرائم القتل فى تلك العهود بين البشر، ولم يكن قتل قابيل لهابيل إلا

---

(١) انظر – إن شئت – كلام أعلام المفسرين فى توجيه هذا السؤال المحكى عن الملائكة فى «التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم» الجزء الأول. لكاتب هذه الدراسة، مكتبة وهبه.

استئنافا لسفك الدماء فى العهد الإنسانى، عهد التكليف بعبادة الله وحده، بعد انقراض بقية البشر. الذى لم يعرف تكليفاً، ولا تلقى رسالة، ولا اتبّع دينا»[١].

تعقيب:

هدف الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين من وضع كتابه «أبى آدم» كان - كما ذكر هو فى أول الكتاب - هو إعدام التفكير الخرافى، الذى يتعلق بنشأة الحياة البشرية، سواء كان مصدر ذلك «التخريف» الروايات الإسرائيلية، أو الروايات الإسلامية خارج نطاق القرآن وهو هدف نبيل - كما ترى - لو كان المؤلف وُفِّق للوفاء به ولكننا نقول بأعلى صوت:

«أن المؤلف بدلاً من أن يعدم الروايات الخرافية عند غيره، أضاف إليها، «خرافة ضخمة» تفوق فى ضخامتها أحجام الأهرامات كلها، ثم غذّى تلك الخرافة الضخمة بحشد هائل من الخرافات المتباينة الأحجام طولاً وعرضا، ومن هذه الخرافات ادعاؤه أن الملائكة وصفت الخليفة «الإنسان» أو آدم الثانى، بسفك الدماء والإفساد فى الأرض، لأنها - أى الملائكة - شبهّتْ (آدم الإنسان وذريته) بـ«آدم البشر وذريته» فالأولون (البشر) كانوا يقتلون ويفسدون فى الأرض. فما المانع أن يكون «الثانون» مثل الأولين سفاكى دماء ومفسدين فى الأرض لأنهم ممسوخو الخلقة، محرومون من الهداية الإلهية، فلا تكليف ولا نبوة ولا رسالة، ولا يحزنون.

فإذا تصورنا هذا البشر المسئول عن «خلقه» المؤلف وحده. فكيف نتصور منه قتلاً وإفساداً فى الأرض، وهو لا يرى ولا يسمع، ولا يحس ولا يعقل؟!

أليست هذه خرافات لم يتصورها إنس ولا جن.

هل يستطيع المؤلف أن يجىء بهذا الخلق الممسوخ يوم القيامة يوم أن يسأله الله عن مصدر علمه به، والله لم يذكر هذا الخلق فى أى وحى أوحاه إلى أى رسول من رسله، ولا أخبر عنه أى رسول من رسله؟ أشَهِدَ المؤلف خلقهم؟ ياللعجب، كل العجب ! أنسى المؤلف الداعية قول الحق عز وجل:

---

(١) أبى آدم (١٣٤).

﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتِيدٌ ﴾ [سورة ق:١٨].

فما هو برهان المؤلف الذى سيأتى به يوم يقال لأصحاب الدعاوى: ﴿ هَاتُوا بُرْهَانكُمْ إن كُنُتْم صَادقين ﴾.

رحم الله رسوله نوحا، الذى قال لقومه، وهو رسول موحىً إليه من ربه:

﴿ وَلاَ أَقُولُ لكُمْ عِندِى خَزَائنُ اللهِ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ. وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إنِّى مَلَكٌ.. ﴾ [هود:٣١].

ورحم الله رسولنا الكريم، الذى قال واضعا نفسه موضعها أمام علام الغيوب:

﴿.. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَ سْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيرِ، وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ، إنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

أفبعد هذا ندَّعى لأنفسنا ونحن بشر عاديون، أن لنا قدرة على رصد مسائل غيبية، لم يؤهل الله أولى العزم من رسله للإطلاع عليها؟ لقد أحلت فى القول ياعزيزنا. وسلكت مسلك من شطح من غلاة التصوف حين قال:

وهذا ذراعى طال للسبع العُلا
ومن تحت قاع الحوت مدَّيْتُ راحتى ؟!

وفى طنجة قالوا صلاتى تركتها
ولم يعلموا أنى أصلى بمكة

أصلى صلاة الخمس فى البيت دائما
مع القطب والسادات، أهل الحقيقة [1]

ولكن قد يشفع لهذا «المغالى» أن يقال أن للأولياء كرامة. أما نحن فمن يشفع لنا فى الدنيا أو فى الآخرة ونحن ندعى لأنفسنا ما نفاه رسل الله الكرام عن أنفسهم، وبكل حسم وقوة؟!

(١) يعنى أنه مقيم بجسده فى طنجة، ومع هذا يصلى الفرائض الخمس فى البيت الحرام بمكة المكرمة؟!

رأى المفسرين :

السؤال الذى قدره المؤلف فى نفسه، ثم تطوع بالإجابة عليه، على النحو الذى عرفت، طرحه المفسرون من قبل ثم حاولوا – اجتهاداً – الإجابة عليه، ولم يُبْعدوا فى القول كما أبعد المؤلف، ولا نريد الإطالة بكل ما قالوه ولكن نكتفى بأرجح ما قالوه؛ لأن القرآن يؤيده : .

قالوا : إن الملائكة قاست حال الإنسان على حال الجان، لأن الجان كانوا يعمرون الأرض قبل خلق آدم، فكانوا يسفكون الدماء، ويفسدون فى الأرض والبشر مثلهم ذوو شهوات تحمل على الصراع والمنازعة فوجه الشبه بين الجان والإنسان شديد القوة والوضوح، أما الملائكة فهم أشكال نورانية لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون. وهذا قول صائب كما ترى.

أما تأييد القرآن له، فقد ذكر القرآن أن الجان مخلوق قبل خلق الإنسان.

ففى سورة الحجر ، آيتى [١٦ – ٢٧] جاء قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ .

فأنت ترى أن المفسرين سلكوا مسلكاً مقبولاً فى الإجابة عن هذا السؤال، ولم يخوضوا فى متاهات الغيب، أو يتكلفوا ما لا وجه له من الصواب.

* * *

السجود للنبى الإنسان

من قرأ كتاب « أبى آدم » أو قرأ هذه الدراسة من أولها يعرف أن مؤلف كتاب « أبى آدم » كان قد زحزح السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم عن زمنه، الذى أجمعت الأمةعلى وقوعه فيه .

كما زحزحه عن آدم الذى أسجد الله له الملائكة ، حين قال الله للملائكة :

﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

فالأمة، وفى مقدمتها رسولها الكريم وأصحابه وتابعوهم بإحسان مجمعون على أن « بشراً » هذا هو آدم الذى اسجد الله له الملائكة .

فجاء المؤلف – عفا الله عنا وعنه – وفصل فصلاً قاطعاً حاسماً جازماً بين « بشر » وبين آدم الذى أمر الله الملائكة بالسجود له .

فيكون المؤلف قد عَدَل بالسجود – حتى الآن – عما أجمعت عليه الأمة ، التى لا تجتمع علي ضلالة ، عدل به عن إجماع الأمة مرتين :

- مرة بتأخير زمنه ملايين السنين.
- ومرة بالمغايرة بين « الشخص » الذى أسجد الله له الملائكة وهنا فى هذا المبحث (السجود للنبى الإنسان) نجد للمؤلف عدولاً آخر متعلقاً بمعنى السجود نفسه فما هو ذلك العدول؟!

فبعد أن عرض المعنى « السجود » المأمور به الملائكة لآدم عند المفسرين وغيرهم .

هل هو السجود المعروف (الشرعى) بوضع الجبهة واليدين على الأرض ؟

أم هو عبارة عن تحية وتكريم ، فيكون معني السجود مجازياً لا حقيقياً ، واللغة فيها الحقائق والمجازات .

رفض المؤلف أن يكون السجود لآدم حقيقياً ، أى بوضع الجبهة واليدين على الأرض ، لأن السجود الحقيقى لغير الله لا يجوز [1].

كما رفض المعنى الثانى ، وهو أن يكون المراد من السجود كناية عن تكريم آدم عليه السلام .

معنى السجود عند المؤلف :

لهذا ذهب المؤلف إلى اقتناص معنى جديد للسجود ، فقال معقباً على مذهب المفسرين فيه :

« هو تصور تبيّن قصوره – يعنى عجزه – عن فهم الموضوع فى ضوء معطيات العلم – يعنى العلم الحديث ؟ – واحتمالات النصوص القرآنية »؟

ثم يقول فى تقرير رأيه هو فى معنى السجود المأموربه لآدم « والذى نطمئن إليه هو أن :

سجود الملائكة كان يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية ابتداء من (آدم) ، وهو تكليف ماض إلى يوم القيامة ، تتول الملائكة فيه المحافظة على بنى آدم ، وإلهامهم الخير ، طبقاً لمشيئة الله – سبحانه – فهى مقابل ما توعد به إبليس آدم وذريته من الغواية والإحتناك ، والهيمنة والتضليل» [2] .

وهذا – كما ترى – مسلك من مسالك التأويل الغريب الذى إتخذ منه المؤلف أداة لتذليل كل العقبات التى تقففى طريقه ولا هذه التأويلات ما خطا المؤلف خطوة واحدة نحو الهدف الموهوم ، الذي جعله نصب عينيه .

والسجود المأمور به الملائكة لآدم له دلالتان إحداهما أسرع إلى الفهم من الأخرى .

---

(١) فات المؤلف – وغيره أن السجود – هنا – طاعة لله ، وليس عبادة لآدم . لذلك كان إبليس عاصياً لله لا لآدم ، ومثل هذه الأوامر غير المألوفة فى خطاب الله لعباده قد وقع لإبراهيم حين أمره الله بذبح إبنه اسماعيل فلا مانع أبداً من حمل السجود على حقيقته . والطاعات تعظم بصعوبة الأوامرعلى النفس

(٢) أبى آدم (١٤٣) .

الدلالة الأولى : وهى الأسرع إلى الذهن عند سماع اللفظ ، هى الدلالة الحقيقية لمعنى السجود لغة وشرعاً ، وهو الإنكباب على الأرض ووضع الجبهة واليدين والركبتين والقدمين عليها . ولا خطر فى ذلك شرعاً ؛ لأن الآمر به هو الله ، فمن امتثلالزمر فقد أطاع الله ، ولم يطع ادم ؛ لأن آدم لم يأمر أحداً بالسجود وليس ذلك فى إمكانه ، ولا ينبغى له .

الدلالة الثانية : الأبطأ مثولاً فى الذهن أن يكون المراد من السجود هو التكريم . وهذ المعني لا يخطر فى الذهن إلا عند من يقول : أن السجود الحقيقى لا يكون إلا لعبادة الله عز وجل أما المعنى الذى ذهب إليه المؤلف فلا يحتمله اللفظ قط ولا يرد على الأذهان عند سماعه .فهذا تأويل مرفوض .

والمؤلف نفسه أشار فى حديث أجرته معه مجلة « نصف الدنيا » المصرية ، إلى رفض مثل هذا التأويل ، حيث خطّأ بعض غلاة الشيعة ، حين فسروا « عَلِيٌّ حكيم » [1] فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ بأنه الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه [2] .

وتفسيره للسجود ، وتفسير الشيعة الذى ذكره فى درجة واحدة : من الغرابة والرفض ، لأن كلا منهما لا يخطر ببال أحد عند سماع الآيتين فكان حرياً بالمؤلف وأده لتأويلاته فى مهدها لأنها تحمل بين طياتها عوامل إفنائها .

ومن الملاحظ أن تأويل السجود بمعنى محافظة الملائكة على آدم وذريته ينسجم تماماً مع فكرة المؤلف « الأم » التى من أجلها وضع كتابه « أبى آدم » .

إن تأويله هذا أن معنى « اسجدوا لآدم » حافظوا على آدم ؟! وهذا المعنى محال محال أن يخطر على بال أحد عند سماعه الآية ، لا يخطر على بال أحد لا من حيث الإيحاء اللغوى ، ولا من حيث الإيحاء الشرعى . فما أبعد تأويل المؤلف ؟ وما أحراه بالطرح والاستبعاد، وهو بلا شك من بدع التأويل المنقوض والمرفوض .

---

(١) الآية رقم (٤) من سورة الزخرف .

(٢) مجلة « نصف الدنيا » العدد ٤٦٦ بتاريخ ٢٤/١/١٩٩٩م .

استمرار البشر بعد آدم :

ومما ينبغى رده – هنا – أن المؤلف جعل من الفروق بين البشر والإنسان ، أن البشر كانوا شريرين مفسدين فى الأرض ولذلك اوَّل المؤلف قول الملائكة لربهم :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ .. ﴾ وصفا للبشر الذين انقرضوا قبل آدم ، لا وصفا لآدمَ أبى الإنسان ، ولا لبنى آدم من بعده .

وهذا التأويل منقوض من جهتين :

الأولى : لا فرق فى الواقع بين البشر وآدم والإنسان . فهذان ذاك ، وذاك هذان .

وعلى فرض التسليم جدلاً للمؤلف بالفرق بين البشر والإنسان وأن البشر كانوا قد انقرضوا قبل ظهور الإنسان . على فرض هذا التسليم الجدلى ، فإن المؤلف محجوج لا حاجٌ ، لإنا نقول له إن البشر لم ينقرض كما ادعيت . بل استمر من ظهور آدم إلى الآن . أتدرى لماذا ؟ لأن سفك الدماء ، والإفساد فى الأرض ما يزالان موجودين منذ عهد آدم إلى هذه اللحظة من القرن العشرين . بل إن الدماء التى أسيلت على وجه الأرض فى العهد الإنسانى بعد ظهور آدم ، لو لم يجففها الهواء وحرارة الشمس وتطاول الزمن . لكانت ـ الآن – أضعاف أضعاف مياه الأنهار والبحور والمحيطات .

والإفساد الذى ظهر على الأرض بعد ظهور آدم وإلى الآن ، لم يكن للبشر الذين كانوا قبل آدم ، على منهج المؤلف ، – علم به ولا فعلوا منه شيئاً قط .

لقد تفنن الإنسان فى استحداث أنواع من الفساد والإفساد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر – قديما – على قلب بشر .

وعلى هذا فيلزم المؤلف واحد من اثنين :

فإما أن يُسلِّم بأن فكرته الفاصلة بين البشر والإنسان سراب خادع ، فيعلن رجوعه عنها ، ويعترف بـ :

- أن آدم هو البشر المخلوق من تراب وليس من أب وأم .
- وأن آدم هو البشر الذى سواه الله ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة أن تسجد له .
- وأن المشروع الإلهى البطئ الذى استمر ملايين السنين خرافة لا وجود

لها . إلا أحرف مسطورة بمداد أسود فى كتاب « أبى آدم » تأليف الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين .

وإما أن يعترف أن الإنسان المكلف بتوحيد الله وعبادته هو كالبشر قبل آدم شرير سفاك للدماء ومفسد فى الأرض فهل أنت مُصِرٌّ بعد هذا - يا سيادة الدكتور - على تقديم فكرتك للناس على أنها : فتح جديد فى الفكر الإسلامى كما روت ذلك عن لسانك مجلة « نصف الدنيا » فى العدد المشار إليه آنفاً ؟ وللناس فيما يعشقون مذاهب كما تعلم يا سيادة الدكتور . ومعنى ما تقدم أن المؤلف خرق الإجماع القائم بين سلف الأمة وخلفها بالنظر إلى « السجود » وحده ، خرق هذا الإجماع ثلاث مرات :

- مرة من حيث تأخير زمن وقوعه ملايين السنين (تسعة ملايين سنة) ؟
- ومرة من حيث « الشخص » المسجود له ، حين افترض المؤلف وجود شخصين أحدهما أبو البشر ، وهو « بشراً » « المنصوص عليه فى القرآن » . . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشراً مِن طِينٍ ﴾ .

ثم « آدم » المنصوص عليه فى قوله تعالى : « اسجدوا لآدم » .

- ومرة من حيث تأويل معناه تأويلاً غريباً نافراً ، بعيداً عن إيحاءات اللغة ودلالاتها ، وعن إيحاءات الشرع ومفاهيمه ومقاصده .

وبهذا يكون المؤلف قد اختط لنفسه خطة فى قصة الخليقة انعزل بها عن فهم الأمة واعتقادها فيها . فوقف فى مكان ناءٍ عن الأمة ، ووقفت الأمة فى مكان واحدٍ تجاهه ، وكأن لسان حال الأمة يقول له :

سارت مشرِّقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

أو يقول له لسان حال الأمة :

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راض ، والرأى مختلف

فهل من تلاقٍ بعد هذا النأى يا سعادة الدكتور؟ أعتقد أن خطو الأفراد مقبلين على الأمة أخف من خطو الأمة مقبلة على الأفراد . لأن الأمة هى الأصل . ومن نأى عن أصله اغترب ، ومن عاد إليه إقترب . هذا هو الأمل فيك .فهل أنت محققه؟ .

* * *

موقف إبليس من السجود

هذا هو المبحث الرابع من الباب الثانى ، الذى دعاه : « وقائع القصة » .

والمؤلف – كعادته – كثير التكرار والبدء والإعادة فى إيراد المسائِل أكثر من مرة ، بل ومن مرات عديدات . وقد نبهنا على هذا من قبل .

ونراه – هنا – يكرر أفكاراً سبق ذكرها من قبل ، وسبقت مواجهتنا لها .

وهو بالطبع رافض كل الرفض لما قاله علماء الأمة من قبل سواء كانوا مفسرين أو غير مفسرين .

ومن هذا قوله فى بداية هذا المبحث ينقد رأيا للمفسرين أو لعلماء الأمة في مسألة غيبية لا يملك أحد غير الله الإحاطة بها يقول المؤلف :

« ونحسب أن الأمر لم يكن بالصورة التى يتخيلها العامة من المفسرين ، من أن مثول الملائكة ، ومعهم إبليس ، بين يدى الله عز وجل ، وآدم واقف ينتظر حدوث السجود .

« فقد استقر رأينا على أن السجود كان لآدم النبى ، الذى اختير خليفة ، والذى استهل به عهد الإنسان ، لا لآدم المخلوق ، فإن حدث الخلق كان قد مضت عليه ملايين السنين . . . وعليه فإن تكليف الله سبحانه للملائكة ، بالسجود ، كان يعنى تكليفهم بالاستقبال بحفظ ذلك الخليفة النبى ، وذريته إلى يوم القيامة ، وقد رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهى ، وأن يعمل فى خدمة الإنسان كالملائكة » (١) .

الذى يرفضه المؤلف – هنا – هو – كما تقدم – فهم وعقيدة الأمة فى قصة آدم كما وردت فى الكتاب العزيز ، ومات عليه من لا يعلم عددهم إلا الله من المسلمين ، منذ عصر الرسالة الخاتمة إلى الآن ، فليس الأمر خاصاً بالمفسرين وحدهم ولا بعلماء الأمة الأعلام على اختلاف العلوم التى قد اشتغلوا بها فى حياتهم .

---

(١) أبى آدم (٤٦) .

لذلك فإن العجب يبلغ مداه حين يحاول فرد من أفراد الأمة تخطئة الأمة بكل مستوياتها وتهجين صوابها ، ليُحل محله مجموعة من الأوهام والتخيلات ، التى لا يملك نصيرها ذرة من علم موثوق به يثبت به صوابا يمحو خطأ الأمة .

فهذه مصادر الإسلام تخلو مما يتصور ، وتحفل بمئات الأدلة على وهمية ما يروجه ، ويصارع الأمة بأسرها من أجل فرضه على ما بقى من أجيالها إلى قيام الساعة؟!

ونقول – مرة تلو المرة – ما دليل الدعوى على أن آدم آدمان ؟ آدم « بشر » وآدم إنسان ؟ آدم مجرد مخلوق غير مُكرَّم من عند الله ؟

وآدم « إنسان » مكرَّم من عند الله بإسجاد الملائكة له ، ثم تتويجه بالرسالة وأن بين « الآدَميْن »ملايين السنين ؟

هذه الأمور لو كانت حقا وصواباً فإن من يقول بها لابد – لكى يكون صادقاً فى ما يقول – أن يكون :

● قد شاهد الوقائع التى يرويها ● أو سمعها ممن شاهدوها .

والمسألة التى ينازع فيها المؤلف المفسرين ، مسألة غيبية ، لم يشاهدها هو، ولم يسمعها ممن شاهدها، ولم ترد فى الرواية الإسلامية التى لا يتطرق إليها شك (الوحى الصادق ، والحديث النبوى الصحيح) . فمن أين جزم إذن بواقعية وجود آدمين بينهما خلائق دنيا استمر وجودها ملايين السنين ؟ ! وهي تزحفُ من سفح الحياة إلى قمتها فى عصر آدم الثانى ؟!

هل لو وقف أحد على شاطئ النيل المصرى – مثلاً – وقال لآخر يقف بجواره :

فى هذا النهر مليون سمكة وخمس سمكات ، هل يصدقه سامعه ؟

كلا ؛ والسبب أن هذا القائل يرجم بالغيب ، ويخبر عما لا علم له به .

ونحن البشر كالواقف على النهر ، والنهر هو الغيب ، ولم يزودنا خالقنا بحواس تطلعنا على الغيب ، سواء كان غيب زمان (ماض سحيق ، ومستقبل دقيق) أو كان غيب مكان .

ونضع بين يدى المؤلف والقراء طرفا مما دار من حوار بين موسى عليه السلام، وبين فرعون عليه اللعنة :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنْسَى ﴾[طه : ٥١ – ٥٢].

السائل هو فرعون :

والمسئول هو موسى :

والسؤال كان عن أحوال الأجيال الأولى قبل عصر فرعون وموسى، والجواب: تفويض الأمر فى علمها لعالمها ، وهو الله عز وجل علاّم الغيوب .

فهذا نبى الله موسى عليه السلام حين سأله فرعون عن أخبار الأمم الماضية . فوكل موسى علمها لله وحده مع ملاحظة أن فرعون سأل موسى عن أجيال الإنسان التى عاشت بعد ظهور آدم حسب دعوى المؤلف . أما كتاب « أبى آدم » فيتحدث عن تاريخ ضارب فى القدم (ملايين السنين) قبل ظهور آدم الإنسان .

والآن نسأل المؤلف :

إذا كان موسى ، وهو رسول موحى إليه من الله أحال العلم إلى الله حين سأله فرعون عن غيب الدهر الماضى ، فهل بعد هذا يستطيع « الإنسان » مهما بلغ من المهارة أن يخطو نحو غيب قديم (قبل آدم الإنسان بتسعة ملايين سنة)، ثم يتحدث عنه بكل ثقة ، ويرصد عنه نتائج حاسمة كأنها نتائج معادلات جبرية قام بتسجيلها مخترع علم الجبر « الخوارزمى » ؟ المعروف .

ما هذا الإفراط يا سيادة الدكتور ؟ ومن أين هذه الثقة العظيمة التى حملتك على تحويل السراب ماء عذباً ؟ !

عَوْدٌ للوصف بالسذاجة :

الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ، يثق فى نفسه ثقة ليس لها حدود . وهذه الثقة الجموح زينت له أن يضع نفسه – بمفرده – فى خصومة عنيفة مع الأمة جمعاء فيما يختص بقصة آدم عليه السلام .

وهذه الخصومة – بدورها – جعلته يرفض كل ثوابت الأمة حول هذه القصة . ولهذا الرفض صورتان :

الأولى : أن يتم الرفض بهدوء ، بحيث يمحو المؤلف – على الورق – إجماع الأمة ثم يثبت أفكاره مكان إجماعها ، غير مبال بما للأمة من السند ، وقطعية الدليل .

والثانية: أن يتم ذلك الرفض مع تسفيه الأمة والهمز واللمز في سيرتها .

وقد تقدم أن المؤلف وصف الأمة بالسذاجة والبلاهة لأنها فسرت نفخ الله من روحه في آدم بصيرورة آدم حيا بعد أن كان جماداً [تراب = طين] . وها هو ذا مرة أخرى يعود فيصف الأمة بالسذاجة والبلاهة مرة أخرى .

فقد ذكر آيات قصة آدم الواردة في سورة (ص) ثم عقب عليها ، وفي تعقيبه جاء الوصف بالسذاجة . وإليك أولاً الآيات :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ؟ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ، وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة ص: ٧١ – ٨٥].

فهمت الأمة – واعتقدت – من هذه الآيات ونظائرها في الأعراف والحجر والإسراء – أن مقاولة حدثت بين الله وبين إبليس ، وكل حدث أو فعل أسند إلى قائله بصيغة : قال – قال وهذه الآيات في دلالتها على هذه المقاولة أو المحاورة ، نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة . وعلي هذا قام إجماع الأمة ، واستقر فهمها واعتقادها .

لكن المؤلف الفاضل لا يعجبه العجب ، ولا الصيام في رجب ، كما يقول

المثل السائر ، فيتنكب سواء الطريق ، ويسخر من موقف الأمة ، ويصفها بالسذاجة (البلاهة) ويرفض هذا الفهم الذى تناقلته الأجيال بالرضا والقبول، من عصر الرسالة إلى يوم الناس هذا . أسمع إليه وهو يقول بالحرف الواحد :

« وفى بداية النظر فى مكونات الحوار نؤكد - هنا - على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغي لله من جلال وعظمة وعلو شأن .. وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه ، وهو لا يزيد فى قدره على أى مخلوق متمرد على أوامر الخالق ..

ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التى يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة : أعنى صورة المواجهة المباشرة فى هذا الحوار ، فلا ريب أن الشيطان كان فى موقعه من الكون ، لا يستطيع أن يتجاوز قدره ، فيتطاول إلى المقام الأسنى - مقام رب العزة - ليجابهه بتلك المقولات فالله أعلى وأجل ... وغاية ما نتصوره أن يكون الحوار قد جرى من خلال الوحى النفسى ، الذى أحاط بتفاصيله من يعلم السر وأخفى .. »[1] .

هذا كلام المؤلف بلا تحريف . ومنه تدرك كيف استهان صاحبنا بإجماع الأمة ، فهى أمة ساذجة بلهاء لأنها ظلت أربعة عشر قرناً لم تفهم كتاب ربها ، وهى تتلوه صباح مساء :

فهمت أن هذا الحوار الصريح الواضح وقع كما صوره القرآن فى آياته الواضحات : أقوال متداولة بين طرف أعلى مقدس وهو الله عز وجل ، وطرف أسفل مدنّس وهو إبليس عليه اللعنة .

من أجل هذا الفهم (الضرورى) رماها المؤلف - سامحه الله - بالسذاجة والسفه والبلاهة؟

ولماذا ؟ :

لأنها فهمت أن إبليس كان أمام الله فى مواجهة . وماذا فى هذا وقد جاء به صريح التنزيل ؟ يقول المؤلف : هذا لا يليق بالله ، لأنه عَلِىٌّ قدير ، وأبليس منحط

---

(١) أبى آدم (١٤٧، ١٤٨).

حقير. الأمة لم تتقول على الله ، بل الله هو الذى قال وأوحى وهذه المقاولة لا تنال من عظمة الله وجلاله مهما كانت حقارة إبليس الذى كان يقاوله . فالله عظيم سواء حاوره إبليس أم لم يحاوره .

وإبليس حقير ذميم سواء حاور الله أو لم يحاوره ، فليس فى هذا الحوار انتقاص لقيوم السموات والأرض ، ولا رفعه لمن حطته معاصيه . فالله هو القاهر ، وإبليس هو المقهور والأمة لم تقترف إثماً في حق الله حينما فهمت كتابه بما تدل عليه ألفاظه وتراكيبه بلا لبس ولا التواء .

سيادة الدكتور : لو وقف مجرم حقير ساقط المروءة والخلق أمام قاض رفيع المقام فى ساحة القضاء ، يسأله القاضى وهو قاض متربع على منصة القضاء ذات الهيبة والوقار والجلال .

ويجيبه المجرم وهو ذليل أقعدته جريمته وراء قضبان فولاذية (قفص الإتهام) :

فهل فى هذا انحطاط لمقام القاضى – ولله المثل الأعلى – أم هل فى هذا رفعة وتشريف للمجرم الآثيم ؟ !

إن الأمة لم تمل عن الحق ، وهى تُجرى آيات القرآن على ظواهرها .الأوضح من الشمس في صافية النهار . ونحن من جانبنا نسأل الله أن يثبت الأمة على ما استحقت به الوصف بالسذاجة والسفه والبلاهة عندك . ونراها – نرى الأمة – تشكو بلسان حالها مما توصمها به فتقول :

إذا محاسنى اللاتى أدل بهـا عُدَّتْ عيوباً فقل لى كيف اعتذر ؟

البديل :

لما رفض المؤلف موقف الأمة من قصة آدم المستقى من الآيات الواضحات من كتاب ربها وتناقلته الأجيال جيلاً عن جيل ، وكان الأصل في هذا الموقف هو عصر الرسالة والصحابة ، والتابعين ، أهل القرون الأول والثانى والثالث ، وهى خير القرون كما ورد فى الحديث الصحيح ، لما رفض المؤلف هذا الموقف الراسخ رسوخ الجبال الثوابت . راح يملأ الفراغ الهائل الذى نتج عن هذا الرفض العشوائى . بماذا ملأه يا ترى ؟

الجواب معلوم من كلامه الذى نقلناه عنه آنفاً . وخلاصة هذا البديل الذى وضعه المؤلف موضع فهم الأمة واعتقادها أن ذلك الحوار الذى ورد فى آيات سورة « ص » وغيرها ليس حواراً صريحاً . بل هو وحى نفسى أحاط بتفاصيله الله الذى يعلم السر وأخفى .

يعنى أن إبليس كان قابعاً فى مكان ما بعيد عن الله ، والله ، لأنه يعلم السر وأخفى ، علم بما يدور فى نفس إبليس فصوره فى وحيه (القرآن) إلى محمد ﷺ – فى صورة مقاولة بين طرفين يسمع كل منهما الآخر . هكذا وهذا كلام مرفوض منقوض من الأساس إن كان له أساس .

لأن المؤلف يقول : إن الله لما كان عالماً بالسر وما هو أخفى من السر علم ما كان يدور فى نفس إبليس بتفاصيله الدقيقة . حقا يا دكتور نحن معك فى أن الله يعلم السر وأخفى . ولكن هل نسيت أو تناسيت أن فى هذا الحوار كلاماً لله عز وجل فقد قال لإبليس :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ؟

وقال له : ﴿ فَاخرُجْ مِنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ؟

وقال له : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمَ الوَقْتِ المعْلُومِ ﴾ ؟

وقال له : ﴿ فَالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تبِعَك مِنهمْ أَجْمعِينَ ﴾ ؟

هذه أقوال لله وردت فى هذا الحوار الذى تصفه بأنه حوار نفسى .

فمن أين علم إبليس – يا سيادة الدكتور – بكلام الله هذا ؟

نحن جاريناك على أن الله علم بتفاصيل ما فى نفس إبليس لأن الله يعلم السر وأخفى .

فهل إبليس – عندك – يعلم السر وأخفى ، حتى يعلم كلام الله النفسى يا سيادة الدكتور ؟

فهل أنت ما زلت مصراً على تسفيه الأمة ورميها بالسذاجة، أم انبلج الصبح لذى عينين ؟ أم ماذا أنت قائل بعد هذا ؟

منهج الكلام النفسى فى القرآن :

ولو كان هذا الحوار كلاماً نفسياً كما تقول لعبرَّ عنه القرآن بمنهج الكلام النفسى المتبع فى القرآن نفسه . وقد ورد فى القرآن أكثر من مرة .

ففى ثانية المعوذتين عبرَّ القرآن عن الكلام النفسى بالوسوسة هكذا :

﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

وفى حديث المرء نفسه قال عز وجل في سورة [ق : ١٦]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ﴾ وفى إغراء الشيطان لآدم ، وهو حديث نفسى جاء قوله تعالى فى [. سورة طه : ١٢٠]:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ .

وقد يعبرَّ القرآن عن هذا الحديث بـ« الظن» أو بواسطة كلمة تدل عليه، مثل الفعل « تَكِنُّ » «أو حروف الجر « فى » جارة للفظ (النفس) أو الفعل: « تُخْفِى» ، وغيرها من الأساليب البيانية الكثيرة الورود فى القرآن الحكيم .

يا سيادة الدكتور : نراك أبعدت « النجعة » وأطلت الشطح بتأويلات لا تقرها لغة ، ولا تأذن بها بلاغة ، ولا يسمح بها شرع ، ولا يميل إليها عقل ، ولا تستريح لها نفس . وما كان أغنانا وأغناك عن هذه « الغيبوبة » العميقة ، والهروب من ميدان الدعوة المتخم بالقضايا الساخنة ، التى تحتاج إلى إسهام قلمك وفكرك . أما ما شغلتنا به فى كتابك فنقول لك كما قال رب العزة لعباده ﴿ تلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ، وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

تأويل الهبوط :

لم نتجاوز الصواب حين حصرنا عمل المؤلف فى هذا الكتاب « أبى آدم » بين الخيال الجامح ، والتأويل المرفوض ، فهى – حقاً – اسم على مسمى . وأهل المعانى لا يشترطون ضرورة التناسب بين الإسم والمسمى دائماً ، لأن تعليل

التسمية ، عندهم ليس بلازم فقد يسمى إنسان بغير ما تدل عليه سيرته ، مثل «محارب » يطلق اسما علي الرعديد الجبان ، وتستمر هذه التسمية تطلق عليه حتى آخر لحظة من غيابه عن الذاكرة بعد الموت .

أما الوصف فيشترطون فى إطلاقه وجود مناسبة بينه وبين الموصوف فلا يقال للبخيل كريم ، إلا على سبيل التهكم .أما اطلاقنا على عمل المؤلف - هنا - بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض فقد جمع بين علِّتَى الإسم والوصف لأن أصل الفكرة التى عرضها المؤلف ليس لها أصل إلا الخيال ، ونحن مصرون كل الإصرار على هذا .

فإذا صورنا هذا الخيال بجيش زاحف على الأرض نحو هدف معين ، هو إثبات أن الوجود البشرى الإنسانى الأصل فيه آدمان وليس « آدم » واحد وإن أزيحت الرقاب عن هاماتها .

آدم أبو البشر ، وآدم أبو الإنسان . وأن بين ظهور الآدمين ملايين السنين .

إذا تصورنا الخيال الذى صاغ هذه الفكرة بجيش يزحف على الأرض فلنا أن نتصور أن لهذا الجيش سلاحاً يحميه من فوقه ومن خلفه وعن يمينه وعن شمائله ويزيح كل العقبات الكئود من طريقه .

وهـــذا الســـلاح هـــو التـأويل المرفوض ، فالمؤلف مغرم جـداً بالتأويل . ومن غرامه به نراه يؤوِّل حتى الكلمـــات التى لو أبقيت على ظاهرهـــا لـم تضره شـــيئـاً فى الانتصـــار لفكرته ولكنـــه - مـــع هـــذا - يؤولهـا حبـــا فى التـأويل .

ومن هذا التأويل غير المحتاج إليه فى عمل المؤلف تأويل كلمة « الهبوط » الواردة في قصة آدم فى القرآن فى مواضع مقابلة لكلمة « الخروج » في مواضع أخرى .فقد جاء الخروج بدل الهبوط في بعض المواضع مثل : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ منهَا فإنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ .

وجاء الهبوط فى مثل : ﴿ فاهبِطْ منَها فَما يكونُ لكَ أنَ تَتكَبَّر فِيهَا ﴾ .

وورود هاتين الكلمتين فى حكاية قول واحد مشكل عند المؤلف . والجمع بينهما فى الحكاية متناقض ؟ !

يقول المؤلف :

« إن الهبوط حركة رأسية من أعلى إلى أدنى . والخروج حركة أفقية من مكان إلى آخر ، والجمع بين البعدين على المستوى المادى متناقض فلم يبق إلا المستوى الأخلاقى، وهو الهبوط من قمة الطاعة إلى درك التمرد ، والخروج من حرم الرضوان إلى حمأة الفسوق والعصيان » (١) .

إذا دققت النظر وجدت المؤلف يؤول - هنا - الهبوط - والخروج معناً، فيخرجهما من الاستعمال الحقيقى إلى الاستعمال المجازى » وهذا لا ضرورة له ، لا عند المفسرين عامة ، ولا عند المؤلف خاصة .

أما عند المفسرين فإن إجراء الكلمتين على ظاهرهما سائغ ، لا تدعو إلى صرفهما إلى المجاز ضرورة .

وأما عند المؤلف فهو غير محتاج لهذا التأويل فى محولاته لإثبات فكرته .

ولا تناقض فى الجمع بينهما علي المستوى المادى كما قال ، لأن الجمع بينهما على هذا المستوى (المادى) يقع فى اليوم الواحد ملايين المرات، فسكان الطوابق العليا يخرجون من منازلهم هابطين ، وركاب الطائرات يخرجون عند انتهاء الرحلات من الطائرات هابطين . فأين التناقض فى الجمع بينهما على المستوى المادى إذن ؟!

* * *

---

(١) أبى آدم (١٥٧) .

بين إبليس وآدم
في الجنة

هذا المبحث هو آخر ما نتعرض له في كتاب « أبي آدم » وهو يمثل الفصل الخامس من الباب الثاني الأخير في رسم الكتاب ويبدأ من (ص ١٥٩) ، إلى (ص ١٦٧) وليس بعده إلا فصل واحد (الفصل السادس) والمسائل التي وردت فيه كانت بمثابة استطراد في خطة الكتاب (أبي ادم) ولم يذكر فيها المؤلف أي دليل جديد على تصويب فكرته (الأم) التي من أجلها وضع كتابه المشار إليه .

والقارئ يعلم أننا في هذه الدراسة أو المواجهة عملنا مقصور على محاصرة ما رآه المؤلف أدلة تؤيد فكرته من آيات الكتاب العزيز ، وما هي في الواقع بأدلة ، ولا شبهات أدلة ، فدلالاتها في وادٍ ، وفهم المؤلف لها في وادٍ آخر ، مع بُعْد الشقة جداً بين الواديين .

أما هذا المبحث (بين إبليس وآدم في الجنة) فكان من الممكن غض الطرف عنه ، لخلوه من مواطن انتزاع الأدلة عند المؤلف لكننا رأيناه يخضع فيه بعض النصوص القرآنية للتأويل التعسفي ، انسجاماً مع ما تقدم له من تأويلات خرجت عن كل حد مألوف في الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية والنقدية على حد سواء .

كما رأيناه يدلي برأي في مسائل غيبية كان تفويض العلم فيها إلى الله هو المسلك الإيماني المحمود ، لأن المسائل الغيبية لا مجال للعقل أو العلم البشري فيها ونسير في هذا المبحث سيرتنا الناقدة ، أو الناقضة في رصد أفكاره وتخيلاته وتأويلاته النابية، ثم الرد عليها ، ومن الله وبالله التوفيق .

عزل آدم وحواء :

وأول ما نعرض له هنا تصور المؤلف أن أمر الله لآدم وزوجه بسكنى الجنة كان المراد منه : عزل آدم وحواء في الجنة عن بقية البشر ، وفي ذلك يقول :

« إن هـذه الجنـة كانت بمثابة الملجأ الآمن الذي يعزل آدم وزوجه .. عن

سائر البشر خارج نطاق التكليف الدينى ، ريثما تُخلَى الساحة الأرضية من وجودهم ، إذ أن الأرض لن تكون بعد ذلك إلا لآدم وذريته ، وهى بداية العهد الإنسانى » (١) .

هذا كلامه ، وما ذكره – هنا – مجرد تصور خيالى واهم لا سند له من كتاب أو حديث . وليس للمؤلف – هنا – سابق أدعى دعواه ، أو تَخيَّل تخيُّله ، أو توهم توهمه ؟

فأمر الله آدم وزوجه بسكنى الجنة كان تكريماً لهما وتفضلا عليهما ، وليس عزلاً لهما عن « البشر » الذى اخترعه المؤلف من (عندياته) ؟

فمن الذى يفهم – غير المؤلف – من قول الله تعالى لآدم وزوجه : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدمُ اسْكُن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ، وَكُلاَ مِنهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴾ [البقرة : ٣٥].

من الذى يفهم من هذا الأمر الكريم أن الله أراد أن يعزل آدم وحواء عن : « البشر » الذين تخيل المؤلف أنهم كانوا ينتشرون فى الأرض ويفسدون فيها كيأجوج ومأجوج ؟ ما مصدر هذه الرواية الذى وضع المؤلف يده عليه ولم يعرفه أحد قط من خلق الله بل إن نبى الأمة محمداً ﷺ ، وجميع الأنبياء من قبله قد حرمهم الله من الإطلاع على هذا المصدر (العزيز) ولو كان عندهم علم به لحدثونا عنه ، ولنقلت لنا الرواية الصادقة حديثهم بالتفصيل . أما الحكمة من هذا العزل – عزل آدم وحواء فى الجنة – فيبادر المؤلف ببيانها ، وهى تطهير الأرض من البشر المفسدين الذين يروحون ويجيئون فوق الأرض ، خارج الجنة التى عزل الله فيها آدم وزوجه . يعنى أن الله عز وجل قضى على البشر بالإعدام الجماعى ، ليُخلى الأرض منهم توطئة لتمكين آدم وزوجه وولديه – فيما بعد – قابيل وهابيل – من العيش فى الأرض ، بعد إبادة الحشرات البشرية ، التى ظلت تعيث فى الأرض فساداً على مدى ملايين السنين؟ ! ونعتقد أن هذا الحدث الضخم لو كان صحيحاً، لأخبر عنه الكتاب العزيز مرات، كاخباره دائماً عن مصارع الأمم العاتية .

---

(١) أبى آدم (١٦٠) .

أو على الأقل لأعلنه رسول الله ﷺ فى جمع حاشد من أصحابه ، ولكانت خطبته في حجة الوداع ، مناسبة لها ، وهو يقرر بنوة الناس لآدم عليه السلام أما وقد خلت منها المصادر الدينية الموثوق بها بل ، وغير الموثوق بها ، فإنها ستظل فى موضعها وهماً من الأوهام .

. **السوءات :**

ومن تأويلات المؤلف النافرة جداً تفسيره للسوءات فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

يقول المؤلف :

« لقد تناقل المفسرون رأيا واحداً عن « السوءة » وهى العورة ، وقالوا – دون اختلاف – : إن نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه ، وكانا من قبل لا يريان ذلك لمواراة سوءاتهما عنهما »[(١)] .

ثم ينقل كلاماً للشيخ رشيد رضا – صاحب تفسير المنار – يقرر فيه المعنى الذى أشار إليه المؤلف عند المفسرين . ويرفض المؤلف كلام المفسرين جملة وتفصيلاً ، ويقدم لكلام صاحب المنار بقوله : « من الغريب » ؟

ومعنى هذا أن المؤلف يرفض ما أجمع عليه المفسرون فى تفسير معنى « السوءة » ومن يرفض هذا المعنى لابد أن يكون لديه بديل أصح . فما هو ذلك البديل الذى رآه المؤلف صواباً بعد تخطئته لجميع المفسرين ؟ !

قال : « وكل ما يقال فى هذه المسألة هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ، ووصفها لما حدث . وعلى ذلك يجوز أن نجتهد فى فهمها انطلاقاً من الملاحظات الآتية :

١ – أن القران ذكر (السوءة) بالجمع مضافاً إلى مثنى ، وهو ما يعنى أن ما بدا منهما ليس عورتيهما ، بل هى عورات كثيرة ولو كانت العورة الغليظة هى

---

(١) أبى آدم (١٦٣) .

المقصودة لقال النص الكريم : ﴿ بدت لهما سوأتاهما ﴾ لكن الجمع يوحى لنا بمعنى آخر .

٢ – افترض أنهما فوجئا برؤية ما لم يكونا يريانه (مخالف) لمعنى الزوجية وسنة الله فيها . وآراء المفسرين قائمة ، علي افتراض أنهما أول زوجين فى تاريخ البشرية ، وهو أمر اثبتنا خلافه » [١] .

٣ – إن آدم لم يكن يعيش في الجنة عارياً ، وهو ما قرره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ يَنْزِعُ عَنهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ .

٤ – قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِما مِن وَرَقِ الجَنَّة ﴾ يؤكد أن الضمير فى « عليهما » لا يعود على « السوءات » وإلا لقال : (عليها) بل إن عائد الضمير [٢] ، هو آدم وحواء بشخصيهما [٣] .

هذه التمهيدات قدمها المؤلف توطئة لإبداء رأيه فى معنى السوءات بعد أن رفض – كلية – آراء جميع المفسرين كما حكى المؤلف نفسه .فما هو رأيه الخاص الذى أحله محل إجماع المفسرين ؟

رأيه أبداه فيما يأتى :

والصورة كما تبدو لنا فى موقف الزوجين صورة هائلة : فقد شعرا حين ذاقا الشجرة أنهما خالفا أمر ربهما ، وقد حذرهما من الشيطان تحذيراً صارماً ، ومعنى ذلك غضب الله عليهما ، وهو ما هيج مشاعرهما ، ووضعهما فى مواجهة عاقبة لا يتحملانها .

وركبهما الندم من هذا التعرى أمام الله ، فأخذ يحاولان التخبؤ والاستتار حياء منه وخجلا ، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنة غطاء يسترهما ، وكأنهما يهيلان عليهما هذا الورق » [٤] .

---

(١) ابى آدم (١٦٤) القارئ يعلم أن ما أورده فى كتابه هذا مجرد وهم من عند نفسه ، ولم يسلم له دليل واحد مما ظن أنه دليل إذن فقوله : « أثبتنا خلافه » غير صحيح .
بل هو مجرد زعم لا أصل له .

(٢) هذا سهو والصواب أن يقال « بل إن مرجع الضمير » .

(٣) ابى آدم (١٦٤) . (٤) ابى آدم (١٦٥) .

دقق النظر فى كلام المؤلف ، ثم أسأل : هل حصل على بديل يضعه موضع إجماع المفسرين الذى أنحى عليهم باللائمة ، وأعلن رفضه له . ؟

كاتب هذه السطور لم يعثر للمؤلف على رأى بديل ، اللهم إلا إذا أراد أن آدم وحواء عُرِّيا تماماً بعد ذوق الشجرة وإذا كان هذا هو مراده - ولابد أن يكون - فما معنى رفضه لرأى المفسرين ؟ أليس تعرية الجسدين تماماً متضمناً لتعرية سوءات الجسدين ؟

وإذا جاريناه على أن التعرية كانت لكلا الجسدين ، فهذا لا ينافى تخصيص القرآن ببدو السوءات والسكوت عن عُرى الجسدين الكامل ؛ لأن القرآن - هنا - قصد أقبح ما فى العرى ، وهو بدو السوءات ؛ لأن عرى بقية الجسد لا يبلغ قبحه قبح بدو العورات .

وهذا التخصيص معروف عند علماء البلاغة بأنه صورة من صور المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية ، يعنى أن البيان القرآنى أطلق الجزء ، وهو السوءات ، وأراد الكل وهو جميع الجسد ، نظيره فى القرآن ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ والمراد الذات وليس الرقبة وغير هذا لا حصر له فى القرآن وكلام العرب الفصيح .

أما ما ذكره من دلالة « الجمع » فى « سوءاتهما » الذى استدل به على أن البدو بعد الأكل من الشجرة لم يكن بدو العورات وهو مذهب سائر المفسرين؛ ودليل المؤلف على أن جمع السوءات ينفى أن يكون المراد العورتين ، وإلا لقال القرآن كما قال المؤلف : « فبدت لهما سوأتاهما » بالتثنية دون الجمع .

فهذا كلام مردود . لأن له - أى الجمع المراد به مثنى - نظيراً لا جدال فيه فى القرآن .

وهو قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. ﴾ [التحريم : ٤] فقد جمع القلبين وجعلهما قلوباً ، ولهذا الجمع فى موضع المثنى نظائر فى لغة العرب الفصحاء . وله معنى بلاغى لو بحث عنه المؤلف لظفر به .

وهو - هنا - يحمل على تفخيم شأن القلبين إذا صفت قلوبهما وصغت ، حتى لكأنهما بعد « الإذعان والصفاء » قلوب لا قلبان .

ثم فات المؤلف ملحظ دقيق لو وقف عنده فى آية الأعراف التى ذكرها فى نفس الموضع الذى حاول فيه رفض بيان المفسرين لمعنى « السوءات » .

الآية هى : ﴿ ينزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ أفلم يلاحظ المؤلف أن القرآن – هنا – عبرَّعن المثنى بـ « المفرد » وهو « لباس » مضافا إلى مثنى (لباسهما) ؟ فلماذا لم يقل القرآن : لباسيهما . ؟ ونسأل المؤلف :

هل كان آدم وحواء يرتديان كساء واحداً أم كساءين ، لن يستطيع أن يقول أنهما كان يلفان نفسيهما في ثوب واحد ، أو كساء واحد ، أو فى لباس واحد ؟

إذن فلماذا المفرد فى موضع الجمع ؟ أليست هذه كتلك ؟ الأولى جمع أريد به مثنى . والثانية مفرد أريد به المثنى، أن خروج القرآن بالتعبير إلى غير المألوف نحويا فن واسع فى نظم القرآن ، ولهذا الفن دلالات بلاغية أنيقة تشع من ورائه ، لا يكون لهذه الدلالات وجود لو جاء النظم على قواعد النحو الرتيبة . وهذا ما يسميه البلاغيون «الإخراج على خلاف الظاهر» وهو فن بلاغى مترامى الأطراف يزدهر به الكلام البليغ.

وكم فى القرآن من هذه الملامح البيانية الرائعة . وهى بلا شك من سمات إعجازه اللغوى البيانى التى سما كلامه بها فوق كلام الإنس والجن .

وبقى وجه آخر لتوجيه جمع « السوءات » يضاف إلى ما تقدم ، ويريح نفس المتأمل فى كلام الله .

خلاصته : أن هذا الجمع من الممكن لغة وبياناً وشرعاً، أن يظل على دلالته « الجمعية »؛ لإن كل إنسان له سوءتان لا سوأة واحدة، سترهما واجب شرعاً .

والمتحدث عنهما فى الآية شخصان لا شخص واحد، هما : آدم وحواء. فلهما – اذن – أربع سوءات لا سوءتان وعلى هذا الاعتبار يبقى الجمع دالاً على « الجمعية » لا على « التثنية » .

فلا داعى للمحاولات التى بذلها المؤلف . فالنص واضح كل الوضوح، والتأويل لا يُحتاج إليه – بل ولا يجوز أبداً – إلا إذا منع من ظاهر اللفظ أو التركيب مانع شرعى أو عقلى، أو حتى عادى. ولا شيء من ذلك هنا .

فلماذا اللف والدوران والانتجاع فى صحراء التأويل القاحلة بحثاً عن الماء، والماء مُبْصر أمامنا؟!

● ثم بقى لنا عتاب شديد على المؤلف؛ لأنه فسَّر خصف آدم وحواء عليهما من ورق الجنة، بأنه محاولة منهما كى يختفيا من اللهحتى لا يراهما وهما عاريان؟

عتابنا على المؤلف أنه جعل من الأسباب التى دعته إلى وضع كتابه «أبىٍ آدم» القضاء على الإسرائيليات التى رواها بعض المؤرخين وبعض المفسرين، نقلاً عن بنى إسرائيل فى قصة آدم عليه السلام. ونراه هنا يوافق الروايات الإسرائيلية الاسطورية المضحكة، وذلك فيما وصل إليه اجتهاده الذى ذكرناه من محاولة آدم وحواء الاختفاء من الله بعد مخالفتهما أمره، وأكلهما من الشجرة المحرمة، وبدو سوءاتهما.

هذه الرواية – فى جوهرها – وردت فى التوراة، وإليك رواية التوراة بتمامها:

«وسمعا – أى آدم وحواء – صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار؟، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله، فى وسط شجر الجنة.

«فنادى الرب الإله آدم، وقال: أين أنت يا آدم؟!

فقال: سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت؟!

فقال – يعنى الرب الإله – من أعلمك أنك عريان؟! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها» (١) .

هذا ما ذكرته التوراة، وذاك ما ذكره المؤلف، والأصل الذى ارتكزت عليه الروايتان واحد، وكان ما ذكرته التوراة ينسب إلى «الرب الإله» الجهل مرتين:

الأولى: لأنه حين دخل الجنة لم يعلم أين يقيم فيها آدم وزوجه.

الثانية: لأنه لم يعلم سبب عُرى آدم وأكله من الشجرة التى حرمها الله عليهما هو وزوجه.

---

(١) التوراة (الكتاب المقدس) سفر التكوين. الاصحاح الثالث الفقرات: ٨ – ١١

وما ذكره المؤلف – وإن خلا من شناعات التوراة – اشترك معها فى أن سبب خصف ورق الجنة عليهما الاختباء من الله، والمعنى الذى يفهم من رأى المؤلف فيه الماح إلى أن آدم وحواء كانا يجهلان أن الله بكل شىء عليم، وأن حالهما من التعرى لا يمكن إخفاؤه عليه – عز وجل – إذا أحكما لصق أوراق الجنة على جسديهما.

مع أن المؤلف يعلم بأن آدم لم يدخله الله الجنة إلا بعد اصطفائه رسولاً. فهل الرسل – يا ترى – تجهل صفات الله القدسية ومنها احاطة علمه بكل كائن؟

ومذهب المفسرين – الذى رفضه المؤلف – يرى أن الباعث على وضع ورق الجنة عليهما هو الحياء الفطرى الذى فطر الله عليه آدم وبنيه. وزاده الإيمان رسوخاً فى نفوس المؤمنين فأى الرأيين أولى – لغة واعتقادا – بالقبول وأيهما أولى بالرفض؟

رأى المفسرين أم رأى المؤلف؟ إن القراء الكرام أغنياء عن أن يلقنهم ملقن من خارج أنفسهم بالاجابة السديدة على هذا التسأول، الذى ذكرناه، ثم تركناه بلا إجابة متعمدين لا مكرهين، ولا عاجزين.

بل إننا لنطمع فى الانصاف من المؤلف نفسه، بعد ما قدمنا من وسائل الاقناع، والطمع فى هذا من مثله مرشح للنجاح.

وفى نهاية هذا المبحث عاد المؤلف إلى تقرير «مقولة» كثيراً ما ذكرها فى مباحث كتابه المتقدمة، وكثيراً ما وقفنا أمامها وكشفنا عن عورها، وأزلنا من الوجود شبهاتها قال: وهو كله ثقة بما يقول:

«فآن الأوان لنزول آدم إلى معترك الحياة الدنيا .. بعد أن هيئت له الساحة، وأخليت الأرض من المفسدين وسفاكى الدماء، ولم يعُدْ فيها سوى الإنسان الجديد» (١).

ونستشهد بواقع الحياة على «اسطورته» هذه «المقولة» فواقع الحياة الدنيا – الآن، وقبل الآن، شاهد حق وصدق بأن الفساد فى الأرض يزداد فى عهد (إنسان

(١) أبى آدم (١٦٥).

المؤلف) وسفك الدماء يتضاعف آلاف المرات، فى عهد (إنسانه) وبعد انقراض (بشره) فهل إلى الرجوع للحق من سبيل ؟!

وإلى هنا نكون قد فرغنا من التعريف بعمل المؤلف فى كتابه «أبى آدم. قصة الخليقة بين الاسطورة والحقيقة» وبينا فكرته «الأم» التى من أجلها وضع كتابه المشار إليه وبينا منهجه فى الاستدلال عليها من آيات الكتاب العزيز.

وتتبعنا كل ما رآه دليلاً له من آيات القرآن، ثم ناقشناها مناقشة موضوعية، بلا إفراط ولا تفريط ولم نترك لا شاردة ولا واردة من اقتناصه للأدلةإلا وقد وقفنا أمامها، وحاورنا المؤلف حولها. وقد رأى القارىء الكريم أن أدلة المؤلف لم يسلم له منها دليل واحد ولا شبهة من دليل.

وزيادة فى الاقناع كنا ننقل كلامه بلفظه ومعناه، إلا ما ندر. لنشرك القارىء معنا فى الدراسة والحكم، ونحمد الله أن قد هدانا الله لما يحبه ويرضاه، ويرضاه رسوله وصالحو المؤمنين. ونحن نكن للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين كل تقدير واحترام، ولو كانت هذه الأفكار صدرت من غيره لما أزعجتنا، لأن الشىء من معدنه لا يستغرب، أما صدورها عنه، وهو من كبار الدعاة، فهذا ما أزعجنا وأزعج غيرنا ممن كانوا يرجون من سيادة الدكتور أعمالاً أخرى فيها مسايرة للدعوة لا مغايرة. وبعد هذا بقى لنا اجمال بعد هذا التفصيل. نختم به هذه الجولة. وعلى الله قصد السبيل.

*　　*　　*

بــلاغ

نحن ما نزال ننسب الفكرة التى وردت فى كتاب (أبى آدم) للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين لأنه هو نسبه إلى نفسه، وهو عندنا صادق لم نجرب عليه غير الصدق .

ولكن – ونحن نكتب الأسطر الأخيرة من هذه الدراسة وقع تحت يدنا مقال منشور فى مجلة روز اليوسف الصادرة بتاريخ ٨/ ٢/ ١٩٩٩ م لكاتب سورى اسمه (خالد العبود) عنوان المقال :

« سكاكين الفتاوى وكتب الشيوعيين » ويبدو أن الكاتب من تلاميذ « أدونيس » كاهن الحداثة العربية . وفى هذا المقال يتهم الكاتب السورى الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين بالسرقة، وأنه سطا على الفكرة التى وردت فى كتابه « أبى آدم » من كتاب لصديق الكاتب السورى، الذى دعاه السورى بـ(العلامة محمد شحرور) وأن اسم الكتاب الذى سرق منه المؤلف هو : « الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة » وتجاوز الكاتب السورى حدود النقد الموضوعى، وتطاول على الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين. ولوّح بقطع يده، واتهمه بأنه لم يصله قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ، واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] .

وقد قال هذا الكاتب السورى بالحرف الواحد يخاطب الدكتور شاهين بأسلوب بذئ:

« أما أنت ياشاهين، لعل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ، واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لم يصلك بعد، والحق معك، ربما اعتبرت أن كاتب هذا الكتاب « الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة » إنسان ملحد أو كتابى (نصرانى أو يهودى) وبالتالى فإن سرقته ليست حراما، والخطاب فى الآية السابقة لا يصل إليه أو يغطيه، أو يشمل ممتلكاته، وبالتالى فإن سرقته مشروعة. فلم يحزنا ذلك، لقد أفرحنا . وخاصة

حين ادركنا أن ما قدمه بعض المفكرين العرب المسلمين الذين اتهموا بالردة والشيوعية. وهو العلامة محمد شحرور مثالا اخترق حتى أعضاء محاكم التفتيش ذاتها، فلم نقف عند أمر السرقة واللف والدوران بقدر ما وقفنا عند هذا التأثير، الذى أحدثه فكرنا العربى الإسلامى الجديد والذى يعتمد منهجا جديداً فى البحث والمعرفة وتفصيل النظم المتطورة وتطبيقها على كتاب الله تعالى » هذا هو كلام روز اليوسف، فما موقف الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين من هذه التهمة. وهذه البذاءة التى نسبتها مجلة روز اليوسف لكاتب سورى اسمه « خالد العبود » .

* * *

كلمات لابد منها

نعم، كلمات لابد منها بعد فراغنا من نقد كتاب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، وفى هذه الكلمات نتحدث عن مسائل لها بفكرة المؤلف نسب وصلة، مع وضع عنوان فرعى لكل كلمة منها حتى ينبلج الحق لذى عينين:

● **طبيعة المسألة:**

ويأتى فى مقدمة هذه الكلمات بيان طبيعة هذه المسألة التى كانت خطوط الطول والعرض فى عمل المؤلف، ومجالا لاجتهاداته وتصوراته.

إنها مسألة غيبية محضة، سواء نظرنا إليها من حيث عرضها فى القرآن الكريم، فقد حدد القرآن بدءها الزمنى والحركى بخلق آدم عليه السلام، الذى أخبر عنه فى أول الأمر بأنه: ﴿ خَالِقٌ بَشَراً ﴾ ثم سمى هذا البشر فى مراحل تالية من منهج سوق القصة فى القرآن الكريم. وتتابعت حركات القصة حتى ظهرت لآدم زوج، ثم انجبا ذرية حدد لنا القرآن الكريم وصف اثنين منها. هما هابيل وقابيل اللذان قتل أحدهما الآخر، كما وردت القصة فى سورة المائدة. الآيات [٢٧ - ٣١] .

أو نظرنا إليها من حيث عرضها المؤلف، الذى افترض لها زمانا سابقاً على الزمان الذى بدأها منه القرآن، لإن المؤلف مط زمن القصة نحو الأزل ملايين السنين، افترض فى أول لحظة منها وجود آدم غير آدم الذى يعرفه الفكر الإنسانى، والذى لم يُخْبِرْ القرآن الكريم عنه، وهو يقص علينا هذه القصة الخالدة.

فسواء نظرنا إلى هذه المسألة بدءاً من الزمن المجمع عليه بين المؤمنين كما ورد فى القرآن.

أو نظرنا إليها حسب تصور المؤلف. فهى مسألة غيبية بحته على كلا النظرين، لا ينازع فى ذلك منصف. والمسائل الغيبية - عموماً - يجب التسليم

بها على النحو الذى ورد فى النصوص المقدسة، وهى – هنا – القرآن؛ لأنه الوحى الوحيد، الذى حفظه الله من التحريف والتبديل والتغيير:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أو ما صح سنده، وسلم متنه من كلام رسول الله ﷺ.

والخروج فى درس هذه المسألة، التى عرضها المؤلف فى كتابه «أبى آدم» عما جاء فى كتاب الله، وفى حديث رسول الله مجازفة مقضى عليها بالفشل، كما حدث لفكرة المؤلف، لأنه أراد أن يصل إليها بغير الطرق والأدوات والمفاتيح التى تستعمل فى التعامل معها.

ولو أن المؤلف وقف أمام هذين البيتين من الشعر قبل خطوه فى طريق صَعْبٌ السير فيه، وهما:

هى الشمس مسكنها فى السماء   فعزِّ الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود   ولن تستطيع إليك النزولا

لو أنه تأمل هذين البيتين لأدرك صعوبة الخوض فى هذا المحيط الخضم، ولأحرق أوراقه التى عليها سطَّر. ولحطَّم أقلامه التى بها كتب، ولوفَّر وقته الذى أنفقه فيها وهو ربع قرن من حياته الحافلة بجيد الأعمال أذهبه سُدىً بلا طائل.

ومن الملاحظات التى أخذناها عليه فى رسم صورة الفكرة ومنهجه فى التعامل معها: أنه وضع على الغلاف سطراً لا صلة له بموضوعه، وهو:

«قصة الخليقة» لأن السطر يوحى بأن كتابه موضوع للحديث فى خلق الكون كله سماواته وأراضيه، وما بين السموات والأرض من أفلاك ومجرات وهواء الخ. مع أن فكرته مقصورة على قصة خلق آدم وبنيه، سواء كان آدم هذا آدم واحداً كما يرى الناس قاطبة، أو كان «آدمَيْن» كما يرى المؤلف.

● **ليست علمية :**

وهذه القصة فى إطار ضوابطها الغيبية، ليست قصة علمية أعنى أن مَنْ يُسْمَعُ قوله فيها ليس العلم، بل الخبر الصادق عن عالم الغيب والشهادة، وهو محصور فى مصدرين :

الأول : كتاب الله العزيز، المنزل على محمد ﷺ .

الثاني : ما ثبتت روايته عن رسوله الصادق المصدوق .

فإن كان للعلم دور فهو دور محدود، ومع كونه محدوداً فهو ليس مطلقاً، بل لابد من عرض نتائجه، مهما كان مصدرها - على ثوابت الوحى. فما وافق الوحى قبل، وما لم يوافق الوحى لا يلتفت إليه .

وما ظهر من اجتهادات العلماء - حتى الآن - ظنون لا يقين فيها، وهى ظنون يعارض بعضها بعضاً، فما يراه فريق حقا يشكك فيه آخرون . والمؤلف أشار إلى هذا الاضطراب العلمى حول هذه المسألة التى أصدر كتابه من أجلها ولن يصل العلم فيها إلى يقين؛ لأنه يعمل فى غير مجاله .

● **وليست عقلية :**

وهى - كذلك - ليست قضية عقلية، أعنى أن العقل لن يأتى فيها بجديد لم يأت به فيها الوحى، لأن العقل حظه من الأمور الغيبية كحظ العلم . فعليه وعلى العلم أن يصغيا فيها لصوت الوحى الصادق الأمين . وكل قضايا ما وراء الطبيعة لا يَعْدُ البحثُ فيها متاهاتِ التخمين والرجم بالغيب . وما بين أيدينا من البحث فيما وراء الطبيعة - قديمه وحديثه - خير شاهد على ما نقول، وهو أشبه ما يكون بما يسمى « أدب اللامعقول » فى نزع الثقة عنه .

ومن علماء أوربا من شبَّه العقل حين يبحث فى ما وراءالطبيعة بـ« البوصلة » تشير إلى الطريق، ولكنها لا تُوَصِّل إليه ومنهم من شبهه بـ« قارب من البوص » يريد صاحبه أن يخوض به واحداً من « المحيطات » العظام .

العلم المادى والعقل قاصران كل القصور عن إدراك شىء مما وراء الطبيعة،

ومجال العلم هو «المادة المحسوسة» لأنه يملك قدرة هائلة على اخضاعها للتجربة والفحص والمشاهدة واستقراء قوانينها، ثم تسخيرها لمنافع الإنسان.

والعقل هو صاحب السلطان فى هذا المجال يضع خطط البحث ويراقب سير العمل. ولما نشط الغرب فى هذا المجال اخترع ما يشبه المعجزات، وحوّل خامات الطبيعة إلى أجهزة ومخترعات مذهلة أفادت الإنسان فى حياته ويسرت له سبل الحياة، وأثمرت كل مذهل وعجيب.

وأنشأت حضارة مادية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشر. والأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين لم يكن مسدداً حين جعل هذه القضية من قضايا العلم والعقل، وطمع أن يوفق - كما قال هو - بين العلم والقرآن» والواقع أنه لا خصومة بين العلم والقرآن فى قضايا الغيوب، ومنها قصة آدم عليه السلام، أو ينبغى أن لا يكون بينهما خصومة بشرط أن يعرف العلم قدره فى هذا الميدان، وأن يقف عند حدوده التى يصعب عليه اجتيازها مهما أوتى من وسائل البحث والنظر، وما يقال عن العلم يقال عن العقل فكلاهما قاصر عن اختراق حجب الغيب المجهول.

يقول العالم الانجليزى هربرت سبنسر فى هذا المجال: «**إن العلم الطبيعى يرينا جليا صغر العقل الإنسانى بازاء ذلك الذى يفوت العقل، وإنه لا يسلك بنا سبيل الاستبداد فى تفهيمنا استحالة الوصول إلى السبب الأول، ولكن ينهج بنا النهج القويم فى تفهيمنا هذه الاستحالة، بإبلاغنا جميع الحدود التى لا يستطاع اجتيازها. ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند تلك الغاية**» (١).

لقد أصاب «سبنسر» كل الصواب فى هذا الكلام، حين وضع العلم والعقل فى مكانهما الأليق بهما. وهو - هنا - يصف - كما ترى - العلم المهذب، والعقل المعقول.

أما شطط العلم، وجموح العقل، فيبقيان فى خارج هذه الدائرة، فى تيه دائم، دون أن يظفرا من تيههما بطائل، ولو كان قلامة ظفر.

---

(١) الميزان بين السنة والبدعة - د/ محمد عبد الله دراز [ص ٢٦] (مخطوط).

ومما يستأنس به في هذا من تراثنا العربى الإسلامى، قول أحد حكماء أهل التصوف:

كَيْفَ الْوُصُولُ إلى سُعَادَ وَدُونَهَا ... وُعْرُ الْجِبَالِ، وَدُونَهُنَّ حُتُوفُ
وَالرِّجْلُ حَافِيَةٌ، وَمَالِي مَرْكَبٌ ... وَالْيَدُ صِفْرٌ، والطَّرِيقُ مَخُوفُ

● **الخيال:**

الخيال مجاله الأدب الإنشائى، يُثريه ويكسوه ثوبا من البهاء والرونق، وهو وسيلة فعالة فى اقتناص الصور الأدبية الموحية، هو روح الأدب - شعره ونثره - به تدب فيه الحياة، وتنسجم فيه الرؤى، وكثيراً ما يستعان بالخيال فى إبراز خفايا النفوس، ودقائق الاحساس الداخلى.

انظر إلى ابن الرومى، وهو يصف الطبيعة فى فصل الربيع المزهر وكيف استطاع فى بيت واحد أن يرسم للناس صورة رائعة لجمال صفحة الأرض الخضراء الضاحكة.

تبرجت بعد حياء وخفر ... تبرج الدنيا تصدت للذكر

لقد استطاع عن طريق الخيال أن يرسم لنا صورة رائعة لصفحة الأرض كلها، صورة مُكبرَّة تشع منها مناظر كل بقاع الأرض، والأداة المستعملة فى رسم هذه الصورة هى الخيال الذى أسفعه بهذا التشبيه البليغ الرائع وهذا ما حدا بأستاذنا عباس محمود العقاد أن يقول: أن بيت ابن الرومى هذا فى وصف الربيع يفوق كل قصائد أمير الشعراء شوقى فى «الربيعيات» لأن ابن الرومى وصف الربيع كما يحسه الشاعر من داخل نفسه، أما شوقى فقد وصف الربيع فى كل «ربيعياته» كما يرئ زهر الربيع من خارج نفسه.

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين يصور فيهما شاعر قديم انقباض النفس وحيرتها واضطرابها من ألم ما يجد فى نفسه من كآبة وأحزان وإحباط:

عَشِيَّةَ مَالِى حِيلَةٌ غَيْرَ أَنَّنى
بَلَقْطِ الْحَصَى، وَالطَّرْقِ فِى الأَرْضِ مُولَعُ

أخُطُّ وَأَمْحُــــو الْخَــطَّ ثُمَّ أُعِيــــدُهُ

بِكَفِّىَ، وَالْغِـــرْبَانُ فِى الَــدار وُقَّـــعُ

وتأمل كيف صور لنا هذا الشاعر عن طريق الخيال هذه الصورة النابضة بالحركة والذهول، التى تصور الإحباط النفسى فيما يصدر عن المرْء من أعمال توحى بما يدور فى نفسه، وتبرزه كأنه حقيقة ماثلة أمام النظر ومع أن الخيال روح الأدب فإن النقاد لا يحمدون جموحه واغرابه، بل يوصون الأدباء بالقصد والاعتدال فيه.

هذا الخيال، الذى هو روح العمل الأدبى، وماء حياته نجده أبعد ما يكون عن مجال البحث العلمى بكل صوره، اللهم إلا إذا احتيج إليه فى التوضيح فحسب. وقياس الغامض على الواضح، والأغمض على الأوضح، والبعيد على القريب.

أما فى البحث عما وراء الطبيعة، أو الغيوب فى العرف الشرعى فيجب أن يُنحىَّ الخيال تماماً مائة فى المائة، وقد أشرنا من قبل إلى أن العلم والعقل، وهما أمران مجديان فى مجالات المعرفة والخبرات الإنسانية، لهما حدود فى حقائق العلوم الغيبية. فما بالك بالخيال، وهو مستبعد من مجالات البحث العلمى والعقلى تماما ؟

وهذا هو الذى جعل جواد المؤلف يكبو منذ أول خطوة أراد له أن يخطوها على الطريق، ولك أن تقول: إن جواد المؤلف لم يستطع أن ينهض قائماً من الأرض، التى كان باركا فيها.

فقد تخيل المؤلف أن تاريخ الإنسانية مشطور شطرين بدأ الشطر الأول من خلق «بشر» صم، بكم، عمى، فهم لا يعقلون. واستمر هكذا ملايين السنين؟

وبدأ الشطر الثانى بظهور آدم (المعروف) بعد انقراض كل بنى «البشر» أو آدم الأول.

ثم أملى عليه ذلك «الخيال الجامح» أن بنى آدم الأول كانوا محرومين من نور المعرفة بوجه عام، ومن نور الهداية الربانية، حيث لم يرسل الله إليهم

رســلاً قط. ولا نظر إليـهم نظرة عطف لأنه ينـوى أن يبيـدهـم في يوم مـا. ثم أبادهم فعلاً؟!

وإذا عرضت هذه المقولة على حقائق الإيمـان وجدتها من الأوهام المنكرة، التي يتبرأ منها «الوهـم» نفسه.

بشر يعيشون ملايين السنين هكذا عماد في عماء. إن خلقهم يكون - وهذا شأنهم عبثاً لاحكمة فيه، وأفعال الله منزهة عن العبث، كما قال جل شأنه:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥].

وحين نرجع إلى آيات القرآن المحكمات نجد فيها ما ينسف خيال المؤلف نسفا، إن صح أن المعدوم ينسف.

فوجود البشر في القرآن صاحب كل مراحل الإنسانية ولو كان لله خلق قد انقرض اسمهم «البشر» كما يقول المؤلف لانقرض اسمهم من الوجود كما انقرضت ذواتهم وهذا ما نجد عكسه في كتاب ربنا الذى ينطق بالحق ولنسق بعض الأمثلة خشية التطويل:

● القرآن الكريم يخبرنا - وخبره الصدق كل الصدق - أن البشر لهم وجود في عصور كل الرسل، حتى في عصر «إنسان المؤلف» الذى افترض ظهوره بعد انقراض «بشر المؤلف الأولين» وهذه الآيات من سورة [إبراهيم: ٩ - ١١] عليه السلام تقطع وهم كل واهم، وفيها يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِين من قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، والَّذِينَ من بَعْدِهمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ جَاءَتْهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيهُمْ فِي أفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ به، وَإنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إلَيْهِ مُرِيب * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ من ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أجلٍ مُسَمًّى.؟ قَالُوا إِن أَنتمُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثلكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا ان نَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ ﴾ .

نلفت نظر القارئ – هنا – إلى أن حديث الله قبل مشركي العرب يبدأ بنوح ويختم بثمود فيمن سمى رسلهم بأسمائهم ثم يعطف عليهم :

﴿ الَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ثم يهوّل من شأن عدد الرسل في الذين بعثهم الله إلى الأمم بعد نوح وعاد وثمود ، فيقول عز وجل :

﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ﴾ .

هؤلاء الرسل جميعا – على كثرتهم – كانت أممهم تقول لهم كلا على حدة : ﴿ إِنْ أَنْتم إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾فوصفوا رسلهم ووصفوا أنفسهم جميعاً بأنهم « بشر » .

ولم ينكر الرسل هذا الوصف ويقولوا بل نحن بنو الإنسان وليسوا بني البشر » بل أقروا بطريق القصر المؤكد ما وصفتهم به رسلهم فقالوا : ﴿ إِن نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ كما تقولون وليس بالبشرية يفضل بعضنا بعضا . بل إن الله يمن بفضله على بعض البشر حسب مشيئته . وبمن الله علي بعض عباده من البشر يفضل بعض البشر بعضا .

فالوصف بالبشرية في هذه الآيات شمل جميع الرسل من نعرف منهم، ومن لا يعلمهم إلا الله .

فهل لو كان « البشر » نوعا منحطًا ، وكان الله قد أبادهم ، هل كان يبقى اسمهم ومعاني اسمهم رسما مميزاً لجميع الأمم والرسل على مدى التاريخ النبوي الذي لا يحيط به علما إلا الله علام الغيوب ؟ وهل يستقيم لنا أن نخترع أوهاماً من لا شئ ونفرضها على الواقع الذي نطق به الوحي ، وصدّق به الوجود كله ؟ !

ثم نجد في القرآن – قول الحق – كلمة البشر وصفا لكل بني اسرائيل ، وهم أمم ، ووصفا للنصارى من بعدهم . ففي سورة المائدة ، حينما ادعى اليهود والنصارى – كل على حدة – أنهم فضائل خاصة من خلق الله، أمر الله رسولنا الكريم أن يكذب دعواهم بعد حكاية مقولتهم ، وذلك في قوله عز وجل :
﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِم يُعذِّبكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ

أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨] .

كم كان تعداد اليهود والنصارى من قبل ، وكم عددهم الآن إنهم خلق كثيرون ، ومع هذا فقد كانوا بشراً وهم اليوم بشر . كما ورد الوصف بـ « البشرية » لملك من ملائكة الله عز وجل اقرأ الآيات الآتية :

﴿ وَاذْكُر فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِياً ﴾ [مريم : ١٦ – ١٩] .

إن الذى أرسله الله إلى مريم رضى الله عنها هو ملك كريم من ملائكته الأطهار . ومع مغايرة حقيقة البشر لحقيقة الملائكة، جاء فى كلام الله الخالص غير المحكي عن غيره أن ذلك الملك ظهر أمام مريم فى صورة بشر سوى الشكل والصورة .

ولو كان « البشر » منحطين أدى بهم إنحطاطهم إلى سخط الله عليهم فأبادهم وانقرضوا، لرفع الله شأن ملائكته عن أن يصفهم بالبشرية التى اندثرت قبل ظهور آدم عليه السلام حسب دعوى المؤلف .

● ومن الحقائق الناصعة ، أن الوصف بالبشرية أضفاه الله عز وجل على خاتم أنبيائه ورسله ، محمد ﷺ :

ففى سورتى الكهف [١١٠] وفصلت [٦] أمر الله رسوله أن يقول لمشركى العرب : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ إن محمداً ﷺ – هو أكرم بنى آدم عند ربه ، وما وطئت الأرض قدم أكرم وأطهر من قدم محمد ، وما مدح الله عبداً من عباده ، ولا نبياً من أنبيائه ، ولا رسولا من رسله بمثل ما مدح به هذا الرسول الكريم ، حين قال له ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ الأحزاب [٤٥ ، ٤٦] .

وحين قال له :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم :٤] .

أبعد هذه الدرجات العلا ، يرضى الله لهذا الرسول الكريم أن يقْصر وصفه على « البشرية » ويُسَوِّى بينه وبين كل من هب ودب على وجه الأرض ، لو كانت « البشرية » منقصة عند الله ومذمة .

وأن يأتى وصفه هكذا مكرراً لا مرة واحدة .

قد يقول المؤلف – وقد قال فعلاً – أن الإنسان هوالبشر لذلك ساغ وصف الرسل والناس بالبشرية ، قد يقول هذا – هنا – ليخرج من المآزق الخانقة . ولكنا نبادر ونقول له :

إن الإسلام يكرْه التسمى بما أصله منقصة ، وينهى عن الإسم الفسوق بعد الإيمان .فلو كان البشر كما وصفه المؤلف بالإنحطاط والغشامة ، وقضى عليه بالتدمير والإبادة ، ليطهر الله الأرض من دنسهم لما سمى مؤمناً عاماً ، ولا رسولاً خاصاً بأنه بشر فلا داعى لأنصاف الحلول . بل لابد من الاعتراف بالحق الناصع فالبشر ، والناس ، والإنسان ، والإنس ألفاظ مختلفة ومعناها واحد .

ولِمَ أبادهم :

نحن والمؤلف – جميعاً – نؤمن بعدالة الله وأنه ليس بظلام للعبيد ، ولا يظلم مثقال ذرة ، وأنه حرَّم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرما .

وفى ظل هذا المبدأ الإيمانى العظيم ، إن سلمنا بفرضية المؤلف أن الله أباد البشر ليطهر الأرض منهم ، لو سلمنا بهذه «المقولة» لكنا مجوزين وقوع الظلم من الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً وكيف نكون كذلك ؟

نكون كذلك لأن المؤلف قال :

● إن أولئك البشر الهمج ، لم يجعل الله لهم سمعا ولا أبصاراً ولا عقولاً .؟!

● وأن الله تعالى لم يكلفهم بتوحيده وعبادته قط ؟!

● وأن الله تعالى لم يرسل إليهم رسلاً قط ؟!

وخَلْق هذه صفاتهم ، وتلك طبائعهم لو فعلوا كل ما فى الإمكان من معاصٍ وشرور ومقابح . فلا مسئولية عليهم قط ، لا عقلاً ولا شرعاً ، فلماذا يعذبهم الله ولم يكن لله أمر فيهم فلم يفعلوه ، ولا نهى عن شئ فخالفوه فلماذا يعذبهم بلا ذنب ولا جريرة ، وهم لم يعرفوا الله أصلاً . إن كل من خلا من التكليف نجا من التلف . لقد أشتد عجبنا ، واشتد إنكارنا على المؤلف ، وهو يجزم مرات برفع التكليف عنهم ، مع وقوع الإنتقام الإلهى عليهم اشتد عجبنا ، واشتد إنكارنا ؛ لأن المؤلف من كبار الدعاة . وصغار الدعاة يقرأون فى كتاب الله العزيز:

قوله المحكم الواضح: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] .
وها هو ذا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ، وهو من هو ، يمهِّد للناس لينسبوا إلى الله الظلم – سبحانه – فيجمع بين نفى التكليف ووقوع العذاب في آن واحد ؟!

إن التعصب للرأى ، والإنتصار له بأى ثمن ، هو الذى دعاه إلى هذه المخاطر، أو المغامرات ، التى لم يُحمد مبتداها . ولن يحمد منتهاها ، ما لم تتداركنا عناية من الله . والثقة فيه بالغة ، والرجاء منه جد كبير .

التأويل :

فى تشبيه لنا تقدم، قلنا : لو مثلنا هذا الخيال الجامح بجيش ضخم يزحف على الأرض ، نحو إصابة الهدف الذى أراده المؤلف . فإن التأويل كان بمثابة سلاح يحمى ذلك الخيال فى زحفه نحو الهدف .

ولولا استعمال سلاح التأويل في الآيات القرآنية التى اعتمد المؤلف على اقتناص الأدلة منها لتأييد فكرته « الأم » لولا هذا التأويل لارتد خياله إلى الوراء بسرعة البرق ، ثم ذاب كما يذوب السراب الخادع .

لقد اسرف المؤلف فى التأويل إسرافاً لا تحتمله اللغة ولا يأذن به الشرع . ولهذا وئدت فكرته فى مهدها الأول وإن تخيّل هو أنها استهلت صارخة وهى ما بها من حياة .

والتأويل هو حمل اللفظ على غير ظاهر معناه إذا دعت إليه ضرورة .
والألفاظ بالنسبة للتأويل ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يمتنع التأويل فيه ، ويبقى اللفظ على معناه الظاهر ، وهو ما يتبادر إلى الذهن عند سماع اللفظ .وهو الأصل فى الكلام ، سواء كان فى الأساليب الفنية الرقيقة ، أو المحادثات اليومية التى يتداولها عامة الناس فى شئونهم .

مثل : السلام عليكم ، كيف حالك ؟ من أين اقبلت ، إلى أين ذاهب فهذه عبارات واضحة الدلالة على المراد فيها كأنها معادلات رياضية ، لا يختلف فهمها من إنسان إلى آخر .

القسم الثاني : ما يجب تأويله وصرفه عن ظاهر معناه إلى معنى آخر . وهذا القسم يكون فى الكلام فيه قرينة أو أمارة على أن المعنى الظاهر غير مراد .

ومن أمثلته فى القرآن الكريم ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : ٢] .

فالمعنى الظاهر هنا أن يعطى اليتيم وليه ماله ، ولو كانت سن اليتيم أشهراً معدودات . والمانع من إرادة الظاهر هو الشرع ، لأن الشرع يوصى بحفظ مال اليتامى بمعرفة أوصيائهم حتى يبلغوا راشدين لأنهم قبل البلوغ الراشد يكونون سفهاء لا يحسنون التصرف فى أموالهم ، وربما يبددونها فى أيام .

ولهذا يجمع أهل العلم من مفسرين وفقهاء على تأويل هذا اللفظ بحيث يكون معناه : وأتوا اليتامى إذا بلغوا راشدين أموالهم وسماهم يتامى باعتبار ما كان قبل البوغ الراشد . والبلاغون يسمون هذا التأويل بالمجاز المرسل ، ويقولون أن سره البيانى هو أمر الأوصياء بالمبادرة بتسليم أموال اليتامى إليهم عقب بلوغهم راشدين . حتى لكأنهم يدفعون إليهم أموالهم فى حال قيام وصف اليتم بهم .

ومثال آخر مما يجب تأويله ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ .. ﴾
[المائدة : ٣٤] .

لأن محاربة الله مستحيلة ، والمعنى مع التأويل : إنما جزاء الذين يعصون الله . وهذا المعنى لا مانع منه ، لأنه واقع بخلاف الأول .

والقسم الثالث : ما يجوز إبقاؤه على ظاهر معناه وصرفه على غير الظاهر، كقوله تعالى فى سورة ق [٣٠] ﴿ يَوْمَ نَقولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ؟ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ ﴾ فمن العلماء من أوَّله وقال أنه تمثيل لاتساع النار لكل المجرمين وترهيب منها .

ومنهم من أبقاه على ظاهره ، وقال : إن الله يُنطق النار بهذا القول حقيقة ، وهو من أهوال القيامة .

والتأويل الذى قام به المؤلف من االقسم الأول وهو الممنوع جريانه فى النصوص ؛ لأن التأويل فى الكلام – وبخاصة القرآن – كالرخص فى التكاليف الشرعية ، لا يباح إلا عند الضرورة القصوى .

بيد أن المؤلف أخضع كل النصوص القرآنية الواضحة الدلالة على معانيها (المُحكمة) للتأويل تطويعا لها لتأييد فكرته وإزاحة للآيات من طريقه . وهذه جرأة غير محمودة أبداً وتفتح أبواباً لا حصر لها للإساءة إلى كتاب الله ، وأن ينزع كل من له غرض فى إثبات أى شىء إلى تحميل كلام الله عكس معناه وهو ما عابه الله على أهل الكتاب ، حين عبثوا بوحى الله إليهم فوصفهم الله بأنهم ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِه ﴾ [النساء : ٤٦] .

ونكاد نجزم أن كل ما قام المؤلف بتأويله هو من التأويل المرفوض المنقوض ، وأنه لولا هذا التأويل ما استطاع أن يجد لفكرته « اثباتا على الورق » وأنه ما أراد بهذا التأويل إلا حماية ما تصوره خياله الجموح . ولولا هاتان الدعامتان – الخيال والتأويل – ما استطاع أن يَسُوِّد تلك الصفحات البيضاء بالمداد الأسود ، التى إذا فتشتها لم تجدها شيئاً . ولو أننا أرخينا العنان لمثل هذاالتأويل فى مصادر الشريعة لما بقى لنا فى الدين ثوابت ولصارت المفاهيم الإسلامية وحقائق الإيمان مختلفة باختلاف التأويلات التى لن يكون لها حدود تنتهى عندها وهذا ما أزعجنا من الداعية الكبير الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين .لقد كان من حماة النصوص المقدسة بالأمس ، فما باله اليوم يدعو إلى حمايتها منه ، ويستمرىء ما فضح هو به الآخرين من قبل ؟ !

مصدر الأمة فى نشأة الإنسانية :

من البواعث التى دعت المؤلف إلى تأليف كتابه « أبى آدم » حماية الأمة من التصديق بالروايات الإسرائيلية فى نشأة الحياة الإنسانية على الأرض وإيجاد صيغة توفق بين القرآن والعقل والعلم فيها .

وقلنا آنفا أنه لا منافرة بين القرآن والعقل والعلم فى هذه القضية : لأنها قضية غيبية من اختصاص الوحى الصادق والقرآن لم يأت فيها بما يثير العلم ، أو يغضب العقل، وعلى العقل والعلم أن يجثوا على الركب أمام صوت الوحى لا فى قصة آدم وحدها ، بل فى كل مسائل الغيب ، أو ما يسمى بما وراء الطبيعة . فإن اصطنع علم عالم أو عقل عاقل خصومة مع الوحى فى هذه الأمور فإنما يرجع ذلك إلى جهل العلم ، وجنون العقل ، ورحم الله كل شئ عرف قدر نفسه .

ونقول هنا : إننا نختلف مع سيادة الدكتور كل الاختلاف فى دعواه أن الأمة استقت عقيدتها فى نشأة الحياة الإنسانية من الروايات الإسرائيلية الباطلة ، كلا يا سيادة الدكتور : لأن الأمة لم تخرج قيد أنملة عن وحى ربها ، وكفاها القرآن هادياً وموجهاً ، وما جاء به القرآن حول هذه القضية واضح كل الوضوح ، كامل كل الكمال .

فلا الأحافير التاريخية ولا الروايات الإسرائيلية هى التى لقنتها عقيدتها فى نشأة الحياة الإنسانية ، وإنما هاديها هو القرآن فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها بإذن الله .

ولم تتأثر كل التفاسير بالروايات الإسرائيلية . بل القليل منها، وأنت تعلم أن التفسير غيرالمفسَّر (اسم مفعول) ؟ فرنين الآيات فى الآذان ، وأثرها فى القلوب يمحو تلك الأساطير من النفس ، وإن ظلت أسطراً سوداء على الورق. وسل – إن شئت – أى مسلم عن قصة آدم فلن تجد على لسانه إلا ما جاء به القرآن مالئاً كل قلب مسيطراً على كل نفس . . وأما الزبد فيذهب جفاء كما قال عز وجل ، والإسرائيليات – عموماً – نهض جيش عرموم من العلماء الأقدمين والمحدثين ، وتتبعوها أثراً أثراً ، وخبراً خبراً فى شتى مصادر الفكر

الإسلامى: فى كتب التفسير وفى كتب الحديث، وفى كتب السيرة والتاريخ، ونبهوا عليها، وحذروا منها. وهى فى كتب التفسير هين أمرها، أما فى كتب الحديث فإن البلاء بها عم وطم، وهذا ما دعا الأقدمين من التصدى لها، فوضعوا تاريخ الرواة وصنفوهم أصنافاً كثيرة ونصوا على من تقبل روايته ومن ترد روايته، وجمعوا الأحاديث الموضوعة فى مجلدات شتى ورتبوها ترتيباً منهجياً رائعاً، وأمام هذه الأعمال المجيدة، يسهل التمييز بين الحق والباطل والغث والسمين ولا يخشى على الأمة بعد هذا من ضلال، لكن بقيت كتب بعينها وضعها مؤلفوها بحسن نية أو بسوء نية، يحشو أدعياء الدعوة عقولهم بها فى مادة وعظهم وخطبهم ودروسهم، ولو أن الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أنفق من الخمسة والعشرين عاماً، التى انفقها فى هذا الكتاب «أبى آدم» لو أنفق خمسة أعوام منها فى إحصاء تلك الكتب الضالة المضلة، وكتب تقريرات عنها، ونشرها فى كتاب ليحذر منها أو طالب بجمعها من على الأرصفة وإعدامها، لقدم للدعوة أجل عمل، بدلاً من شَغْل نفسه بموضوع العلم به لا ينفع، والجهل به لا يضر.

وآخر ما نذكّر به أن هذا الكتاب« أبى آدم » من أوله إلى آخره، إنما هو مجموعة من أخبار مسندة إلى الله، أى أن المؤلف يسوق أحداثاً ليس لها فى الوجود فاعل لو كانت صواباً، إلا الله عز وجل:

فـالله هو الذى خلق آدم الأول (؟!) والله الذى خلق ذرية آدم الأول، بلا سمع ولا بصر ولا عقل، وجعلهم يتناسلون عبر ملايين السنين، والله الذى أهملهم وحرمهم من النور والهدى فلم يرسل إليهم رسولاً، ولم يعرّفهم بالتوحيد، ولم يطلب منهم عبادة، والله هو الذى أبادهم وطهر الأرض منهم، وأحل آدم الثانى وزوجه وذريته محلهم.

والله الذى خلق آدم الأول من تراب، أما آدم الثانى فقد خلقه من صلب أب، وترائب أم، إن له والداً ووالدة، وحواء لم تخلق من ضلع آدم، بل لها أب وأم كذلك.

إن هذه كلها أخبار تروى عن الله فى كتاب « أبى آدم » وتسند إليه على لسان الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ، فما هى المصادر التى استقى منها هذه الحقائق ، التى غابت عن فكر الإنسانية جمعاء ؟ وإذا كان الإسلامُ يُجَرِّمُ من يتحدث عن لسان الرسول بغير سند ، ويمنع الرواية عنه بغير دليل ، فما بالنا بإسناد وقائع خطيرة إلى الله ، بغير ما أخبر الله به عن نفسه ، ولا أخبر بها عن رسوله ؟ هذا ما نريد من المؤلف تدبره ، وإنعام النظر فيه ، ثم اتخاذ القرار المناسب نحوه فإن الأمر جد خطير .

ونذكر الداعية الكبير بقول الله تعالى، وهو يتوعد الذين وخاضوا فى أمرٍ غيبى ، ليس لهم به علم، فوصف الله خوضهم هذا بأنه « شهادة زور، وأنه سوف يسألهم عنها يوم القيامة ، وذلك فى سورة الشورى [١٩] .

﴿ وَجَعَلُوا الملآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ .

إنهم شهدوا شهادة زور واحدة . . . وأنت شهدت – مجتهداً – عشرات الشهادات . فماذا أنت فاعل حين يقول الله لك :أشهدت خلقهم ياعبد الصبور؟!

والأمر لله من قبل ومن بعد . وعلى الله قصد السبيل .

نـــداء : «من كل قلوبنا ننادى الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أن يعود إلى حظيرة الأمة فى فهمها لقصة آدم لأن خطو الأفراد نحو الأمة مقبلين عليها ، أخف من خطو الأمة نحو الأفراد مقبلة عليهم ؛ لأن الأمة هى الأصل . ومن نأى عن أصله اغترب . ومن عاد إلى أصله اقترب . ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية» .

عزيزنا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين : ما كان أحوجنا نحن وأنت، إلى غير هذا منك ، وإلى غير هذا منا . وفقنا الله وإياك إلى ما يرضيه ، ويرضى رسوله، وصالحى المؤمنين، وسلام على عباده الذين اصطفى والحمد لله رب العالمين .

المؤلف : عفا الله عنه .

القاهرة – الظاهر صباح الخميس ٢٥ / ١٠ / ١٤١٩ هـ الموافق ١١ / ٢ / ١٩٩٩م.

الفهرس

الطريق إلى الجنة
(٥٣ - ٦٤)

البرهان اللغوى
(٦٥ - ٨٠)

برهان التكرار
(٨١ - ٨٩)

آدم أبو الإنسان
(٩٠ - ٩٥)

البشر واللغة
(٩٦ - ١٠٨)

الإنسان والملائكة
(١٠٩ - ١١٨)

السجود للنبى الإنسان
(١١٩ - ١٢٣)

موقف إبليس من السجود
(١٢٤ - ١٣٣)

بين إبليس وآدم فى الجنة
(١٣٤ - ١٤٢)

بلاغ
(١٤٣ - ١٤٤)

كلمات لابد منها
(١٤٥ - ١٦٠)


أحدث مؤلفات ... المؤلف

- سماحة الإسلام فى الدعوة إلى الله .. والعلاقات الإنسانية .
- أوروبا فى مواجهة الإسلام .. الوسائل والأهداف .
- افتراءات المستشرقين على الإسلام .. عرض ونقد .
- الفقه الاجتهادى الإسلامى .. بين عبقرية السلف ومآخذ ناقديه .
- عقوبة الإرتداد عن الدين .. بين الأدلة الشرعية وشبهات الشرعية وشبهات المنكرين .
- لماذا .. لابد من دين الله لدنيا الناس .
- جوانيات الرموز المستعارة .. لكبار (أولاد حارتنا) .
- المسيحيون والمسلمون فى تلمود اليهود .. غرائب وعجائب .
- مصادر الإبداع .. بين الأصالة والتزوير .
- دراسات جديدة فى إعجاز القرآن .. مناهج تطبيقية فى توظيف اللغة .
- الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة .
- المجاز فى اللغة والقرآن الكريم .. بين الإجازة والمنع (جزآن) .
- خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية (مجلدان) .
- الحداثة .. سرطان العصر أو ظاهرة الغموض فى الشعر العربى الحديث .
- المجاز .. عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه ..
- أخطاء وأوهام .. فى أضخم مشروع لهدم السنة .
- أسباب زواج النبى ﷺ بأمهات المؤمنين . ومواجهة افتراءات المغرضين .

صدر حديثًا :

- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم (٤ مجلدات) .

* * *



سلسلة

«لابد من دين الله .. لدنيا الناس»

تصدرها مكتبة وهبة تباعًا

* صدر من هذه السلسلة

١- الحداثة سرطان العصر .. أو ظاهرة الغموض فى الشعر العربى . للدكتور عبد العظيم المطعنى

٢- أدعياء التجديد .. مبددون لا مجددون .. للدكتور على العمارى

٣- التنوير .. لا التضليل للأستاذ مؤمن الهباء

٤- منهاج الإسلام .. فى حياة الفرد والمجتمع للأستاذ عبد السميع المصرى

٥- لماذ لابد من دين الله لدنيا الناس ؟ للدكتور عبد العظيم المطعنى

٦- فوائد البنوك ، والاستثمار ، والتوفير.. فى ضوء الشريعة الإسلامية للدكتور رمضان حافظ السيوطى

٧- الأمة الإسلامية حقيقة .. لا وهم للدكتور يوسف القرضاوى

٨- مصادر الابداع بين الأصالة والتزوير للدكتور عبد العظيم المطعنى

٩- جوانيات الرموز المستعارة .. لكبار أولاد الحارة للدكتور عبد العظيم المطعنى

١٠- دور الأزهر السياسى فى مصر .. إبان الحكم العثمانى دكتور عبد الجواد صابر إسماعيل

١١- تغييب الإسلام الحق .. ودحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم للدكتور محمود توفيق محمد سعد

١٢- المسيحيون والمسلمون فى تلمود اليهود «غرائب وعجائب» للدكتور عبد العظيم المطعنى

١٣- الاعجاز الطبى فى الكتاب والسنة الأستاذ حسن ياسين عبد القادر

١٤- أخطاء وأوهام .. فى أضخم مشروع تعسفى لهدم السنة النبوية للدكتور عبد العظيم المطعنى

١٥ - أبى آدم .. قصة الخليقة .. بين الخيال الجامح .. والتأويل المرفوض للدكتور عبد العظيم المطعنى